قصص النبيين

للأطفـــال

الجزء الثالث

قصة موسى — عليه الصلاة والسلام

تأليف

السيد ابو الحسن علي الحسني [illegible]

طبع على نفقة

الخير الفاضل الشيخ غلام رسول تاجر [illegible]

ملتزم الطبع والنشر

ندوة العلماء بلكهنؤ الهند

مطابع

دار الكتاب العربي بمصر

محمد حلمي المنياوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

الرائد الديني لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة

لم يكن الشاعر العربي مغالياً حينما قال عن الأطفال :

وإنمـا أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

فالأطفال هم قطع الأكباد التى تحولت إلى أولاد ، وهم الودائع الغالية التي يجب أن تصان وأن ترعى حق الرعاية من الكبار ، وكل منهم عجينة لينة فى يد وليه أو المشرف على تربيته وتنشئته ، وهناك كثير من العامة يحسبون أن تربية الكبار أشق وأدق من تربية الصغار ، بينما الواقع على العكس من ذلك ، فقد يحتاج التعليم السليم القويم للأطفال إلى أكثر مما يحتاج إليه تعليم الشباب أو الرجال ، وذلك لأن الفترة التى يبدأ فيها تعليم الطفل الدروسَ الأولى تظل ذات أثر عميق وطويل فى نفسه ونشاطه واتجاهه فى الحياة ، ومن هنا كان الواجب على رجال التربية والتعليم أن يعطوا هـذه الفترة كل عناية ورعاية ، حتى يحسنوا فيها التصرف الذى يترتب عليه مختلف النتائج والعقبات فى القريب والبعيد من أيام الحياة . . .

وفوق هذا توجد بعض الأسباب التى تدفعنا إلى أن نكون على تمام الخبرة والحذر فى تعليم الطفل وإمداده بغذائه العقلى والروحى ؛ منها أن الطفل يعتقد فى المشرفين عليه الصدقَ والعلم الواسع والإحاطة الشاملة والخبرة الفسيحة ، فيتقبل منهم وينقل عنهم بلا مناقشة أو جدال ؛ ومنها أن ما يتلقاه الطفل فى دروسه الأولى يرسخ فى نفسه ، ويتمكن من ذاته ، ولقد قالوا ولا يزالون يقولون : إن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ؛ ومعنى ذلك أن ما نلقيه إلى التلميذ سيبقى ويدوم ، فإن كان خيراً بقيت فائدته ودامت منفعته ، وإن كان شراً بقى سوءه ودامت النكبة به ؛ وما صدر الطفل حين ذاك إلا صندوق فارغ كجهاز الاستقبال اللاقط الذى يرتبط كل الارتباط بما يُرْسَلُ إليه من الخارج ، فإذا جاءه شيء من ذلك تمكن منه كل التمكن ، وثبت فيه غاية الثبات . . .

وما دام الأمر كذلك فإن واجبنا أن ندقق كل التدقيق فيما نقدمه إلى الطفل من زادِ عقله وقلبه ، وخاصة أنه سيكون مسرفاً فى حب الاستطلاع والشغف بالمعرفة والشوق إلى الإدراك ، فلو اختلط أمامه الحق والباطل لما ترك له هذا النهم الغريزى فرصة للتأنى والتروى ، أو التمييز والاختيار . . .

ومن واجبنا أن ندرك مقدار الجناية التى يجنيها على الأطفال أولئك الذين يقدمون إليهم الزاد العقلى الممتلئ بالأمشاج

والأوضار . ويثقلون على قلوبهم وأفكارهم بهذه الأساطير المغرية والخرافات العجيبة التى تخرج بهم عن الاستقامة فى التفكير والاعتدال فى التصور إلى الشطط فى الخيال والجموح فى الوجدان ؛ ولعل البعض يتعلل بأن هذه الأساطير تنمى الخيال وتفتق الحيلة ؛ ولكن الضرر الذى تجنيه على الطفل خطير كبير لا يقاس به هذا المقصد الضئيل . . .

ولا شك فى أن الأفضل من ذلك كله هو أن نقدم إلى الطفل زاداً عقلياً وأدبياً يجمع بين الحسنيين : بين الصدق والجمال ، ليكون عنصر الصدق فيه عاملا من عوامل الثقافة والعرفان ، وليكون عنصر الجمال فيه باباً من أبواب الرقى فى التخيل والسمو فى الوجدان ، وفى قصص القرآن الكريم من ذلك مدد أى مدد ، وزاد أيما زاد . . .

نعم إن قصص القرآن الحكيم يهدى للتى هى أقوم ، ويأتى بالخبر اليقين ، ومع ذلك تتوافر فيه عناصر القصة المشوقة العذبة الرائعة ؛ وحسبنا من قصص القرآن صدقه ودقته ، ووعظه وعبرته ، وإحكامه وبلاغته ؛ وهل بعد قول الله قول؟ . . .

ها هو ذا الحق تبارك وتعالى يحدثنا عن قصص القرآن فيقول : « نحن نقص عليك أحسن القصص » ويقول : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » ويقول : « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ويقول : « إنِ الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين »

ويقول : «تلك القرى نقص عليك من أنبائها» ويقول : «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» ويقول : «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق» ويقول : «ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد» ويقول : «إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون» ويقول : «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» ويقول : «إن هذا لهو القصص الحق» ويقول : «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» .

* *

وها هو ذا أخونا الداعية المفضال السيد أبو الحسن على الندوى يدرك هذه الحقيقة خير إدراك ، فيخرج لأطفال المسلمين فى الهند وغيرها هذه السلسلة من «قصص النبيين» ، فيخدم بذلك دينه ، إذ يعرض عن طريق هذه القصص كثيراً من مبادئه وتعاليمه التى يتلاءم ذكرها مع القصة ، أو تنبعث أضواؤها من الجو المحيط بالقصة ؛ ويخدم بذلك أطفال المسلمين . لأنه يقدم إليهم أحسن القصص وأصدق التاريخ وأجمل الحوار وأروع الحوادث ، فيرضى الميول المختلفة فى نفس الطفل الهائم بالاستطلاع . ويخدم بذلك مكانته الأدبية وإن لم يتعمد ذلك ، فإن أبا الحسن الذى استطاع أن يكتب للكبار مثل كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»

وكتابه « إلى الإسلام من جديد » وغيرهما فيجيد ويحسن ، هو الذي استطاع أيضاً أن يكتب للأطفال المسلمين قصص النبيين فى هذا الأسلوب البسيط السهل الميسور السائغ . والاقتدار على الإجادة فى الكتابة للكبار مع الإجادة فى الكتابة للصغار منزلة يقل الذين يبلغونها من الكاتبين والمؤلفين . . .

* * *

ها هو ذا مثلا يتحدث فى قصة موسى وفرعون عن أمور وحوادث ومواقف كل منها مثير جذاب ، وكلها مفيد نافع ، وكلها حق وصدق . . . يتحدث بلغته السهلة الواضحة عن حكمة الله سبحانه فى ميلاد موسى خلال تلك الفتنة الأثيمة التى ابتعثها فرعون الجبار ؛ ويتحدث عن هذا الدرس البليغ الكاشف عن جوانب من قدرة الله التى لا تُحد ولا تعجز عن شىء ؛ حينما أمر أم موسى بأن تلقى ابنها فى اليم ولا تخاف عليه ولا تحزن ، لأنه سيرده إليها ، وسيجعله فوق ذلك من المرسلين . . . ويتحدث عن بليغ تدبير الله وعنايته فى وضعه موسى بين يدى فرعون ، مع أنه هو عدوه الأول ، ولكن الأمر كما قال الشاعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ويقص عليك كيف يعيد الله القوى القادر موسى الرضيع إلى أمه التى أصبح فؤادها فارغاً ، إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربط الحق على قلبها لتكون من المؤمنين . . .

ويقص عليك كيف كان موسى النبي قوياً يحمل غطاء البئر الثقيل ، وكيف كان عفيفاً لم يرض أن يسير وراء بنت شعيب فيرى الريح تصف جسمها حين تتلاعب بثوبها : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوىُّ الأمين » .

ويقص عليك كيف ذهب موسى وهرون إلى فرعون ، وكيف علا فرعون فى الأرض وبغى وتجبر ، وكيف نصر الله موسى وقهر فرعون فأهلكه — وهو أطغى الطغاة — بالماء السائل الرقراق ؛ وهكذا يكون أخذ ربك إذا أخذ الطاغية المتكبر الجبار . . .

ويقص عليك غير ما قدمت من مواقف كلها إثارة وعظة واعتبار ! ! !

* * *

إن مما يصدق قوله عن هذه السلسلة أنها طرائف إسلامية يتحف بها السيد أبو الحسن الأشبال الناشئين من أبناء المسلمين ، فيجدون فيها غذاء العقول وضياء الألباب ، وقد يكون من حق هذه السلسلة على الكبار أن يقرأوها كذلك — وخاصة الذين لم يكن لهم عهد بالقصص القرآنى — فهى تعطيهم صوراً ناصعة وواضحة ومؤثرة عن حوادث التاريخ وأيام الأنبياء ، وقد يكون من حق هذه السلسلة أن ينظر إليها رجال التربية والتعليم فى بلاد المسلمين هنا وهناك ، فقد يجدون فيها ما يصلح تقديمه إلى أطفالهم

لذين يعتمدون فى أغلب قراءاتهم الأولى على زاد أدبى قصصى لا تتوافر فيه الصبغة الإسلامية المسيطرة . . .

وقد يكون من حق هـذه السلسلة أخيراً على رجال الفكر البيان أن تثير فيهم الرغبة فى الاحتذاء والاقتداء فيخرجوا لناشئة المسلمة ألواناً شتى من القصص المؤمنة الصادقة المشوقة ، يكون أبو الحسن قد سنّ سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها ، سيكون لكل عامل نصيبه من الثواب والأجر ، لا ينقص منه ىء ، « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

وأعتقد أنه قد آن الأوان ليؤدى جنود الدعوة والفكر والبيان ضريبة الإسلام المستحقة فى رقابهم ومواهبهم ، بأن يخرجوا لأبناء لملة السمحة ألوانا من الأدب الدينى الصحيح الجذاب ، وأن يفجروا نابيع الثقافة المؤمنة فى صدور الناشئة والشباب عن طريق القصة لمؤمنة ، والكتاب المؤمن ، والفن المؤمن ؛ وإنهم لقادرون على أدية تلك الضريبة دون أن يحال بينهم وبين ما يطمحون إليه من جوه الجمال الفنى المتكاثرة ، فما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به لأخيار ، وزادوا عليه رضا الله . . .

لقد آن الأوان لدفع ضريبة الإيمان . . .

« القـاهرة »

أحمد الشرباصى

من علماء الأزهر الشريف

مقـــــدمة

للباحث الداعية الأستاذ سيد قطب

عرفت صاحب هذا الكتيب « السيد أبو الحسن الندوى » .
عرفته فى شخصه وفى قلبه . فعرفت فيه القلب المسلم والعقل المسلم ؛ وعرفت فيه الرجل الذى يعيش بالإسلام وللإسلام على فقه جيد للإسلام .

هذه شهادة لله أؤديها ، وأنا أقدم هذه الطبعة من ذلك الكتيب الصغير .

وقصص النبيين للأطفال — على صغر حجمه — عمل جليل يضاف إلى أعمال السيد أبى الحسن وإخوانه الأفاضل فى حقل الدعوة الإسلامية . فليس الكبار وحدهم هم الذين يجب أن يبلغ إليهم الإسلام فى صورته النقية ، بل إن قلوب الصغار لأحوج إلى هذا الغذاء ، ليشبوا وطعم الإيمان فى نفوسهم ، ونوره فى قلوبهم ، وبشاشته فى أرواحهم ، والقصص هى المادة الأولى التى تتفتح لها تلك القلوب الصغيرة البريئة .

وهذا الكتيب — وإن كان مكتوباً للصغار — إلا أننى أعتقد أن الكثيرين من الكبار فى حاجة إلى أن يقرأوه .

فالكثيرون لم يتح لهم تعليمهم الذى سيطر عليه الاستعمار وهيمن عليه التبشير ، أن يعرفوا شيئاً عن قصص القرآن الكريم ، ومراميه العميقة ، وجوه الإيمانى التهذيبى المؤثر ، كما هو معروض فى هذا الكتيب .

ولقد قرأت الكثير من كتب الأطفال — بما فى ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام — وشاركت فى تأليف مجموعة « القصص الدينى للأطفال » فى مصر مأخوذا كذلك من القرآن الكريم . ولكنى أشهد فى غير مجاملة — أن عمل السيد أبى الحسن فى هذه القصة التى بين يدى ، جاء أكمل من هذا كله . وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامى القصة وحوادثها ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة فى ثنايا القصة ، ولكنها توحى بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقر فى قلوب الصغار أو الكبار .

جزى الله السيد أبا الحسن خيراً ، وزاده توفيقاً ، وهدى به الأجيال الناشئة التى تحيط بها العواصف والأعاصير ، وتنتثر فى طريقها الأشواك ، وتدلهم من حولها الظلمات ، وتحتاج إلى الهدى والنور والرعاية ، والإخلاص فى حياطتها ورعايتها . وعلى الله التوفيق .

حلوان — القاهرة فى ١٤ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٣ — سيد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — من كنعان إلى مصر

انْتَقَلَ يَعْقُوبُ « عَلَيْهِ السَّلَامُ » إِلَى مِصْرَ وَانْتَقَلَ مَعَهُ أَوْلَادُهُ .

انْتَقَلُوا إِلَى مِصْرَ لِأَنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوب « عَلَيْهِمَا السَّلَامُ » هُوَ سَيِّدُ مِصْرَ ، يَأْمُرُ وَيَنْهَى فِيهَا .

وَكَانُوا فِي كَنْعَانَ يَرْعَوْنَ الْغَنَمَ وَيَحْلِبُونَ الشَّاةَ وَيَبِيعُونَ الصُّوفَ .

وَعَبِيدُ يُوسُفَ وَخَدَمُهُ يَأْكُلُونَ وَيَنْعَمُونَ فِي مِصْرَ !
فَمَا يَصْنَعُونَ فِي كَنْعَانَ ؟ وَلِمَاذَا لَا يَذْهَبُونَ إِلَى مِصْرَ ؟
أَرْسَلَ يُوسُفُ إِلَى يَعْقُوبَ وَأَهْلِهِ وَطَلَبَهُمْ مِنْ كَنْعَانَ .
وَكَانَ يُوسُفُ لَا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ حَتَّى يَرَى أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ .

وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ، وَكَيْفَ يَطِيبُ لَهُ عَيْشٌ وَهوَ وَحِيدٌ فِي مِصْرَ ؟ .

وَمَاذَا يَصْنَعُ بِالْقُصُورِ وَأَبُوه وَإِخْوَتُهُ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ فِي كَنْعَانَ ؟!

وَجَاءَ يَعْقُوبُ وَأَوْلَادُهُ إِلَى مِصْرَ فَاسْتَقْبَلَهُمْ يُوسُفُ وَفَرِحَ بِهِمْ فَرَحاً عَظِيماً .

وَاسْتَقْبَلَتْ مِصْرُ أُسْرَةَ سَيِّدِهَا وَأُسْرَةَ مَلِكِهَا الْكَرِيمِ وَفَرِحَتْ بِهَا فَرَحاً عَظِيماً .

وَأَحَبَّ أَهْلُ مِصْرَ هٰذَا الْبَيْتَ الْكَرِيمَ ، لِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ يُوسُفَ لِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلى النَّاسِ .

وَلِأَنَّهُمْ رَأَوْا فِي يُوسُفَ أَخاً نَاصِحاً شَفِيقاً ، فَرَأَوْا فِي يَعْقُوبَ وَالِداً مَاجِداً كَرِيماً .

وَكَانَ يَعْقُوبُ كَبِيرَ الْبِلَادِ ، وَشَيْخَ مِصْرَ، وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ لَهُ كَالْأَبْنَاءِ .

وَطَابَتْ لِيَعْقُوبَ وَأَبْنَاءِهِ الْإِقَامَةُ فِي مِصْرَ وَصَارَتْ لَهُمْ وَطَنًا .

٢ — بعد يوسف

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يَعْقُوب فَحَزِنَ عَلَيْهِ يُوسُفُ وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ .

وَدَفَنُوا الشَّيْخَ فِي مِصْرَ وَكَأَنَّهُمْ فَقَدُوا أَبَاهُمْ .

وَبَعْدَ مُدَّةٍ مَاتَ يُوسُفُ أَيْضًا فَكَانَ يَوْمًا عَلَى أَهْلِ مِصْرَ شَدِيدًا .

وَحَزِنَ عَلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ حُزْنًا شَدِيدًا وَبَكَوا عَلَيْهِ بُكَاءً طَوِيلاً .

وَنَسِيَ النَّاسُ أَحْزَانَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ هٰذَا الْيَوْمِ .

وَدَفَنُوا يُوسُفَ أَيْضًا وَعَزَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَكَانُوا فِي يُوسُفَ سَوَاءً .

كُلُّ صَغِيرٍ فقدَ أباهُ وَكلُّ كَبِيرٍ فقَدَ أخاهُ .

وَمَشَى النَّاسُ إلى إخْوَةِ يُوسُفَ وَأَبْنَاءِهِمْ يُعَزُّونَهمْ .

وَيقُولُونَ لَهُمْ : أَيُّهَا السَّادَةُ ! لَيْسَتْ خَسَارَتُكمُ الْيَوْمَ أَكْبَرَ مِنْ خَسَارَتنا نَحْنُ .

فَقَدْ فقَدْنا فِي دَفِينِ الْيَوْمِ أَخًا شَفِيقًا ، وَسَيِّدًا رَحِيمًا وَمَلِكاً عَادِلاً .

هوَ الَّذِي أَرَاحَ الْعِبادَ ، وَأزَالَ الظُّلْمَ مِنَ الْبِلادِ .

هُوَ الَّذِي مَنَعَ الْكَبِيرَ يَظْلِمُ الصَّغِيرَ ، وَمَنَعَ الْقَوِيَّ يأْكلُ الضَّعِيفَ .

هُوَ الَّذِي أَغَاثَ الْمَظْلُومَ وَأَجَارَ الْخَائِفَ وَأَطْعَمَ الْجَائِعَ .

هُوَ الَّذِي هَدَانَا إِلَى الْحَقِّ وَدَعَانَا إِلَى اللهِ وَكُنَّا قَبْلَ قُدُومِهِ بهَائِمَ لَانَعْرِفُ اللهَ وَلَا نَعْرِفُ الآخِرَةَ .

هُوَ الَّذى أغَاثنا أَيَّامَ المَجَاعَةِ فَكُنَّا نأْكلُ وَنَشْبَعُ ، وَالنَّاس يَمُوتُونَ فى الْبِلَادِ الْأُخْرى .

إِنَّا لَا نَنْسَى مَلِكَنَا الْكَرِيمَ أَبَدًا وَلَا نَنْسَى أَيُّهَا السَّادَةُ أَنَّكُمْ إِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ .

وَكَمْ فَرِحَ بِكُمْ سَيِّدُنَا يَوْمَ قُدُومِكُمْ إِلَى مِصْرَ وَكَمْ فَرِحْنَا بِفَرَحِ سَيِّدِنَا .

فَالْبِلَادُ بِلَادُكُمْ ، وَإِنَّا لَكُمْ أَيُّهَا السَّادَةُ كَمَا كُنَّا فِي حَيَاةِ سَيِّدِنَا .

٣ — بنو إسرائيل فى مصر

وَهٰكَذَا كَانَ مُدَّةً طَوِيلَةً !

فَقَدْ حَفِظَ أَهْلُ مِصْرَ مَا قَالُوا وَعَرَفُوا لِلْكَنْعَانِيِّينَ الْفَضْلَ .

وَكَانَ هٰؤُلَاءِ الْكَنْعَانِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ « بَنِي إِسْرَائِيلَ » أَصْحَابَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ .

وَلٰكِنْ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَقَدْ فَسَدَتْ أَخْلَاقُهُمْ ، وَتَرَكُوا الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ وَدُعَاءَ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ ، وَسَقَطُوا عَلَى الدُّنْيَا .

وَتَغَيَّرَ لَهُمُ النَّاسُ أَيْضًا وَصَارُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى آبَائِهِمْ .

وَصَارُوا كَسَائِرِ النَّاسِ، لَا يَمْتَازُونَ عَنِ النَّاسِ إِلَّا بِالنَّسَبِ

وَصَارَ النَّاسُ يَحْسُدُونَ الْغَنِيَّ مِنْهُمْ وَيَحْتَقِرُونَ الْفَقِيرَ مِنْهُمْ .

وَصَارَ أَهْلُ مِصْرَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ كَغَرِيبٍ جَاءَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ .

وَلَيْسَ لَهُ حَقٌّ فِي مِصْرَ .

وَكَانَ أَهْلُ مِصْرَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْبِلَادِ وَأَنَّ مِصْرَ لِلْمِصْرِيِّينَ .

وَيَرَى بَعْضُ أَهْلِ مِصْرَ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ غَرِيبًا جَاءَ مِنْ كَنْعَانَ .

وَاشْتَرَاهُ عَزِيزُ مِصْرَ .

وَلَيْسَ لِلْكَنْعَانِيِّ أَنْ يَحْكُمَ مِصْرَ .

وَنَسِيَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَضْلَ يُوسُفَ وَكَرَمَهُ وَإِحْسَانَهُ .

٤ — فرعون مصر

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ فَرَاعِنَةٌ « مُلُوكُ مِصْرَ » يُبْغِضُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بُغْضاً شَدِيداً .

وَجَاءَ عَلَى عَرْشِ مِصْرَ مَلِكٌ جَبَّارٌ جِداً . فَكَانَ لَا يَرَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَنَّهُمْ مِنْ بَيْتِ يُوسُفَ مَلِكِ مِصْرَ الْكَرِيمِ .

بَلْ كَانَ لَا يَرَى أَنَّهُمْ بَشَرٌ يَسْتَحِقُّونَ الرَّحْمَةَ وَالْإِنْصَافَ .

وَكَانَ يَرَى أَنَّ قَوْمَه « الْقِبْطَ » مِنْ نَوْعٍ وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ .

الْقِبْطُ مِنْ نَوْعِ الْمُلُوكِ خُلِقُوا لِيَحْكُمُوا .

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ نَوْعِ الْعَبِيدِ خُلِقُوا لِيَخْدِمُوا .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يُعَامِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ

وَالدَّوَابُّ يَسْتَخْدِمُهَا الْإِنْسَانُ وَلَا يُعْطِيهَا إِلَّا قُوتَ يَوْمِهَا .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ مَلِكاً جَبَّاراً مُتَكَبِّراً لَا يَرَى فَوْقَهُ حَداً .

وَكَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ بَلْ كَانَ يَقُولُ : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » .

وَكَانَ مَغْرُوراً بِمُلْكِهِ وَقُصُورِهِ وَقُوَّتِهِ وَيَقُول : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

وَكَأَنَّهُ كَانَ خَلِيفَةً لِنَمْرُودَ مَلِكِ بَابِلَ .

وَكَانَ يَغْضَبُ إِذَا عَلِمَ أَحَداً يَرَى فَوْقَهُ أَحَداً .

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَتِهِ وَالسُّجُودِ لَهُ ، وَأَطَاعَهُ النَّاسُ .

وَامْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَيُؤْمِنُونَ بِرُسُلِهِ وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .

٥ — ذبح الأطفال

وَذَهَبَ كاهِنٌ قِبْطِيٌّ إلَى فِرْعَوْنَ وَقَالَ لَهُ :

« يُوْلَدُ مَوْلودٌ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ يَذْهَبُ مُلْكُكَ عَلَى يَدِهِ » .

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ ، وَأَمَرَ الشُّرْطَةَ أَنْ يَذْبَحُوا كُلَّ مَوْلودٍ يُولَدُ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ .

وَكانَ فِرْعَوْنُ يَرَى أَنَّهُ رَبُّ النَّاسِ يَذْبَحُ مَنْ يَشَاء وَيَتْرُكُ مَنْ يَشَاء .

كَصَاحِبِ الْغَنَمِ يَذْبَحُ مِنْ غَنَمِهِ مَا يَشَاء وَيَتْرُكُ مَا يَشَاء

وَانْتَشَرَتِ الشُّرْطَةُ فِي مِصْرَ يُفَتِّشُونَ وَيَبْحَثُونَ

فَإِذَا عَلِمُوا مَوْلوداً وُلِدَ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ أَخَذُوهُ وَذَبَحُوهُ كَمَا تُذْبَحُ النَّعْجَةُ .

وَعَاشَتِ الذِّئَابُ فِي الْغَابَةِ وَعَاشَتِ الْحَيَّاتُ وَالْعَقَارِبُ فِي الْبَلَدِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا أَحَدٌ .

وَلٰكِنْ مَا كَانَ لِمَوْلُودٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعِيشَ فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَوْنَ .

وَذُبِحَ أُلُوفٌ مِنَ الْأَطْفَالِ أَمَامَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ

وَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمًا عَسِيراً .

وَكَانَ يَوْمَ حُزْنٍ وَبُكَاءٍ .

وَكَانَ الْيَوْمُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ مَوْلُودٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَ تَعْزِيَةٍ وَرِثَاء .

وَكَانَ يُذْبَحُ مِئَاتٌ مِنَ الْأَطْفَالِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ كَعِيدِ الْأَضْحَى .

يُذْبَحُ فِيهِ مِئَاتٌ مِنَ الْغَنَمِ وَالنِّعَاجِ وَالْبَقَرِ .

« إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً

يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » .

٦ — ولادة موسى

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَقَعَ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَخَافُهُ وَيَحْذَرُه .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِهِ .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يَكُونَ خَلَاصُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِهِ .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ .

وُلِدَ ذٰلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي قَدَّرَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

وُلِدَ مُوسٰى بْنُ عِمْرَانَ عَلَى رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ .

وَعَاشَ مُوسٰى ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ عَلَى رَغْمِ الشُّرْطَةِ وَرَقَابَتِهِمْ .

٧ — فى النيل

وَلٰكِنْ خَافَتْ أُمُّ مُوسٰى عَلَى مَوْلودِهَا الْجَمِيلِ ، وَكَيْفَ لَا تَخَافُ وَعَدُوُّ الأَطْفَالِ بِالْمِرْصَادِ ؟.

وكَيْفَ لَا تَخَافُ وَقَدِ اخْتَطَفَتِ الشُّرْطَةُ عَشَرَاتٍ مِنَ الأَطْفَالِ مِنْ حِجْرِ الأُمَّهَاتِ فِى أُسرَتِهَا .

مَاذَا تَصْنَعُ الأُمُّ الْمِسْكِينَةُ ، وَأَيْنَ تُخْفِى هٰذَا الْمَوْلودَ الْجَمِيلَ وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

هُنَالِكَ أَغَاثَ اللهُ الأُمَّ الْمِسْكِينةَ وَأَلْهَمَهَا أَنْ تَضَعَهُ فِى صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيَهُ فِى النِّيلِ .

اللهُ أَكْبَرُ ! كَيْفَ تَضَعُ الأُمُّ الْحَنُونُ طِفْلَهَا فِى صُنْدُوقٍ وَتُلْقِيهِ فِى النِّيلِ ؟ !

مَنْ يُرْضِعُ الطِّفْلَ فِى الصُّنْدُوقِ ؟ وَكَيْفَ يَتَنَفَّسُ الطِّفْلُ فِى الصُّنْدُوقِ ؟ !

كُلُّ ذٰلِكَ فَكَّرَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ وَلٰكِنَّهَا تَوَكَّلَتْ عَلَى اللهِ وَاعْتَمَدَتْ عَلَى وَحْيِ اللهِ.

وَلَيْسَ الْبَيْتُ أَحْفَظَ لِلطِّفْلِ مِنَ الصُّنْدُوقِ!

هُنَا الشُّرْطَةُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَعَدُوُّ الْأَطْفَالِ بِالْمِرْصَادِ.

وَالشُّرْطَةُ لَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ.

وَفَعَلَتِ الْأُمُّ الْمِسْكِينَةُ مَا أَمَرَهَا اللهُ وَوَضَعَتْ طِفْلَهَا الْجَمِيلَ فِي صُنْدُوقٍ وَأَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ.

وَجَزِعَتِ الْأُمُّ الْحَنُونُ ثُمَّ صَبَرَتْ وَتَوَكَّلَتْ عَلَى اللهِ.

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

٨ — فى قصر فرعون

كَانَ فِرْعَوْنُ لَهُ قُصُورٌ كَثِيرَةٌ عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ.

وَكَانَ يَتَنَقَّلُ مِنْ قَصْرٍ إِلَىٰ قَصْرٍ وَيَتَنَزَّهُ عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ.

وَكَانَ يَوْماً جَالِساً عَلَى شَاطِئِ النِّيلِ يَتَنَزَّهُ وَيَرَى إِلَى النَّهْرِ يَجْرِى تَحْتَ رِجْلَيْهِ .

وَكَانَتْ مَعَهُ مَلِكَةُ مِصْرَ تَتَنَزَّهُ مَعَ الْمَلِكِ وَتَرَى إِلَى النِّيلِ يَجْرِى وَبَيْنَمَا يَتَنَزَّهَانِ إِذْ وَقَعَ بَصَرُهُمَا عَلَى صُنْدُوقٍ تَلْعَبُ بِهِ أَمْوَاجُ النِّيلِ كَأَنَّمَا تُقَبِّلُهُ .

هَلْ تَرَى يَا سَيِّدِى ذٰلِكَ الصُّنْدُوقَ ؟

أَيْنَ الصُّنْدُوقُ فِي النِّيلِ ؟ إِنَّمَا هِيَ خَشَبَةٌ سَقَطَتْ فِي النِّيلِ .

لاَ يَا سَيِّدِى إِنَّمَا هُوَ صُنْدُوقٌ !

وَقَرُبَ الصُّنْدُوقُ ، فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ هٰذَا صُنْدُوقٌ !

وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَحَدَ الْخَدَمِ ، وَقَالَ : إِلَيْكَ هٰذَا الصُّنْدُوقَ !

وَذَهَبَ الْخَادِمُ وَأَخْرَجَ الصُّنْدُوقَ .

وَفُتِحَ الصُّنْدُوق فَإِذَا فِيهِ غُلاَمٌ جَمِيلٌ يَبْتَسِمُ .

وَتَحَيَّرَ النَّاسُ ، كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيَرَاهُ .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَرَآهُ .

قَالَ بَعْضُ الْخَدَمِ ، إِنَّ هٰذَا الْغُلَامَ إِسْرَائِيلِيٌّ وَلَا بُدَّ لِلْمَلِكِ أَنْ يَذْبَحَهُ .

وَرَأَتْهُ الْمَلِكَةُ ، وَدَخَلَ حُبُّهُ فِي قَلْبِهَا فَضَمَّتْهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا وَقَبَّلَتْهُ .

وَشَفَعَتْ لَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ وَقَالَتْ : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً » .

وَهٰكَذَا دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ قَصْرَ فِرْعَوْنَ ، وَعَاشَ عَلَىٰ رَغْمِ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِهِ .

وَلَمْ يَهْتَدِ الشُّرْطَةُ إِلَىٰ هٰذَا الْمَوْلُودِ الْإِسْرَائِيلِيِّ ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَرَادَ اللّٰهُ أَنْ يُرَبِّيَ فِرْعَوْنُ « عَدُوُّ الْأَطْفَالِ » طِفْلاً يَذْهَبُ مُلْكُهُ عَلَىٰ يَدِهِ .

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ ! لَقَدْ أَخْطَأَ فِي شَأْنِ مُوسَىٰ .

وَقَدْ أَخْطَأَ مَعَهُ وَزِيرُه هامَانُ وَجُنُودُه .

« وَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إنّ فِرْعَوْنَ وَهامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خاطِئِينَ » .

٩ — من يرضع الطفل ؟؟

وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَدِيدُ وَكَانَ الطِّفْلُ الْجَمِيلُ لُعْبَةَ الْقَصْرِ وَلَهْوَ الدَّارِ .

كُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُه ، وَكُلٌّ يُحِبُّه وَيَمْدَحُه ، لِأَنَّ الْمَلِكَةَ تُحِبُّه حُبًّا عَظِيماً .

فَكَيْفَ لاَ تُحِبُّه سَيِّدَاتُ الْقَصْرِ وَكَيْفَ لاَ يُحِبُّه خَدَمُ الْقَصْرِ .

وَكُلٌّ يَأْخُذُهُ وَيُقَبِّلُه ، لِأَنَّ الطِّفْلَ جَمِيلٌ .

وَطَلَبَتِ الْمَلِكَةُ مُرْضِعاً تُرْضِعُ الطِّفْلَ ، وَجاءَتْ وَأَخَذَتِ الطِّفْلَ وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيأْبىٰ .

وطَلبَتِ الْمَلِكَةُ مُرْضِعاً أُخْرَى ، وحَضَرَتْ وأَخَذَتِ الطِّفْلَ ، ولٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِي وَيأْبىٰ .

وثالِثَةً ورابِعةً وخامِسَةً ولٰكِنَّ الطِّفْلَ يَبْكِى ويأبىٰ.

عجبًا! لِماذا لا يَرْتَضِعُ الطِّفْلُ، لِأَىِّ شىْءٍ يَبْكِى؟

اِجْتَهَدَتِ المَراضِعُ أَنْ تُرْضِعَ الطِّفْلَ لِتَسُرَّ المَلِكَةَ وتَنالَ مِنْها جائِزَةً، ولٰكِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ المَراضِعَ.

وأَصْبَحَ الطِّفْلُ حديثَ القَصْرِ وشُغْلَ الدّارِ.

هَلْ رَأَيْتَ يا أُخْتِي الطِّفْلَ الجَدِيدَ؟

نَعَمْ قَدْ رَأَيْته؛ طِفْلٌ جَمِيلٌ جِدًّا.

ولٰكِنَّهُ طِفْلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ كالأَطْفالِ! إنَّهُ لا يَرْتَضِعُ.

وإذا أَخَذَتْهُ مُرْضِعٌ يَبْكِى ويأبىٰ أَنْ يَرْتَضِعَ: مِسْكِينٌ كَيْفَ يَعِيشُ؟ إنَّهُ يَمُوتُ.

نَعَمْ قَدْ مَضَى عَلَيْهِ أَيّامٌ ولَمْ يَرْتَضِعْ.

١٠ — فى حجر أمه

وقالَتْ الأُمُّ الحَنُونُ لِأُخْتِ مُوسىٰ:

إذْهَبِي يا بِنْتِي وانْظُرِى أَخاكِ لَعَلَّهُ حَيٌّ.

إِنَّ اللّٰهَ قَدْ وعَدَنِى أَنَّهُ يَرُدُّ الطِّفْلَ إِلَىَّ وأَنَّهُ يَحْفَظُهُ.

وذَهَبَتْ أُخْتُ مُوسٰى تَبْحَثُ عَنْ أَخِيهَا .

وسَمِعَتِ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ طِفْلٍ جَمِيلٍ فِى قَصْرِ الْمَلِكِ.

ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ وَوَقَفَتْ تَسْمَعُ حَدِيثَ النِّسَاءِ فِى الْقَصْرِ .

هَلْ جَاءَتِ الْمُرْضِعُ الَّتِى طَلَبَتْهَا الْمَلِكَةُ مِنْ أَسْوَانَ ؟

نَعَمْ يَا سَيِّدَتِى ، وَلٰكِنَّ الطِّفْلَ أَبَى أَيْضًا وَلَمْ يَرْتَضِعْ .

يَا سَلَامُ ! مَا شَأْنُ هٰذَا الطِّفْلِ ؟ لَعَلَّ هٰذِهِ هِىَ السَّادِسَةُ الَّتِى جَرَّبَتْهَا الْمَلِكَةُ .

نَعَمْ وَيَقُولُونَ إِنَّهَا مُرْضِعٌ نَظِيفَةٌ جِدًّا وَكُلٌّ يَرْتَضِعُ مِنْهَا .

سَمِعَتْ أُخْتُ مُوسٰى هٰذَا الْكَلَامَ وَقَالَتْ بِأَدَبٍ وَلُطْفٍ:

أَنَا أَعْرِفُ إِمْرَأَةً فِى الْبَلَدِ ، لَا بُدَّ أَنْ يَرْتَضِعَ مِنْهَا الطِّفْلُ .

قَالَتْ إمْرَأَةٌ : أَنا لاَ أُصَدِّقُ قَدْ جَرَّبْنَا سِتَّ مَرَاضِعَ وَلٰـكِنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَرْتَضِعْ .

قَالَتْ أُخْرَى : وَلِمَاذَا لاَ نُجَرِّبُ السَّابِعَةَ ، مَاذَا عَلَيْنَا ؟

وَوَصَلَ الْخَبَرُ إلَى الْمَلِـكَةِ فَطَلَبَتِ الْجَارِيَةَ وَقَالَتْ :

« إذْهَبِي وَخُذِي مَعَكِ هٰذِهِ الْمَرْأَةَ » .

وَجَاءَتْ أُمُّ مُوسٰى ، وَجَاءَتْ خَادِمَةٌ وَقَدَّمَتْ إلَيْهَا مُوسٰى .

فَاعْتَنَقَ الطِّفْلُ الْمَرْأَةَ وَأَقْبَلَ يَرْتَضِعُ ، كَأَنَّهُ كَانَ مِنْهَا عَلَى مِيعَادٍ

وَلِمَاذَا لاَ يَرْتَضِعُ وَهِيَ أُمُّهُ الْحَنُونُ ؟ !

وَلِمَاذَا لاَ يَرْتَضِعُ وَهُوَ جَائِعٌ مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ؟ !

وَعَجِبَتِ الْمَلِـكَةُ وَعَجِبَ أَهْلُ الْقَصْرِ وَارْتَابَ فِرْعَوْن وقَالَ لِمَاذَا قَبِلَ هٰذَا الطِّفْلُ هٰذِهِ الْمَرْأَةَ فَهَلْ هِيَ أُمُّهُ ؟

قَالَتْ أُمُّ مُوسٰى يَاسَيِّدِي أَنَا إمْرَأَةٌ طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ كُلُّ طِفْلٍ يَقْبَلُنِي .

وسَكَتَ فِرْعَوْنُ وأَجْرَى عَلَيْهَا رِزْقًا .

ورَجَعَتْ أُمُّ مُوسَى إِلَى بَيْتِهَا وفِي حِجْرِهَا مُوسَى .

« فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولاَ تَحْزَنَ ولِتَعْلَمَ أَنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ »

١١ — إلى قصر فرعون !

وَلَمَّا أَتَمَّتْ أُمُّ مُوسَى رَضَاعَتَهُ رَدَّتْهُ إِلَى الْقَصْرِ .

وَنَشَأَ مُوسَى فِي قَصْرِ الْمَلِكِ كَمَا يَنْشَأُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ .

وَهٰكَذَا زَالَتْ مِنْ قَلْبِ مُوسَى مَهَابَةُ الْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ .

وَرَأَى مُوسَى بِعَيْنَيْهِ كَيْفَ يَنْعَمُ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَشْقَى بَنُو إِسْرائِيلَ لِيَنْعَمَ فِرْعَوْنُ وَأَهْلُهُ .

وَكَيْفَ يَجُوعُ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِتَشْبَعَ دَوَابُّ فِرْعَوْنَ

وَكَيْفَ يُعَامِلُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ .

وَكَيْفَ يَسْتَخْدِمُونَهُمْ وَيَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

وَكَانَ مُوسَى يرى ذٰلِكَ صَبَاحَ مَسَاءَ وَيَسْكُتُ .

وَلٰـكِنْ كانَ مُوسٰى يَغِيظُهُ ذٰلِكَ .

وَكَيفَ لَا يَغِيظُهُ إِهَانَةُ قَوْمِهِ وَأُسْرَتِهِ .

وَهُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ .

وَمَا ذَنْبُ بَنِي إِسْرائِيلَ ، أَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَقْبَاطًا ؟!

أَأَنَّهُمْ مِنْ كَنْعَانَ ؟!

هٰذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ ! هٰذَا لَيْسَ بِذَنْبٍ !

١٢ ــ الضربة القاضية

وَلَمَّا كانَ مُوسٰى شَابًّا قَوِيًّا آتَاهُ اللهُ حُكمًا وعِلْمًا .

وَكَانَ مُوسٰى يُبْغِضُ الظَّالِمِينَ وَيَكْرَهُهُمْ ، وَيُحِبُّ الضُّعَفَاءَ وَالْمَظْلومِينَ وَيَنْصُرُهُمْ وكَذٰلِكَ كُلُّ نَبِيٍّ .

ودَخَلَ مُوسٰى مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ مَرَّةً والنَّاسُ فى لَهْوٍ وَشُغْلٍ .

وَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هٰذَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهٰذَا مِنَ الأَقْبَاطِ . أَعْدَاءِ بَنِي إِسْرائِيلَ .

فصرخَ الإسْرَائيلِيُّ وَنادَى مُوسَى لِنَصْرِهِ وَشَكَى الْقِبْطِيَّ .

وَغَضِبَ مُوسَى فَضَرَبَ الْقِبْطِيَّ ، فَكانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَمَاتَ الْقِبْطِيُّ وَنَدِمَ مُوسَى جِدًّا وَعَرَفَ أَنَّ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ .

فَتَابَ مُوسَى إِلَى اللهِ وَأَنابَ وَكَذٰلِكَ كلُّ نَبِيٍّ .

« قَالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ » .

وَتَابَ اللهُ عَلَى مُوسَى ، لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ ، بَلْ ضَرَبَه وَلٰكِنَّهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَحَمِدَ اللهَ مُوسَى وَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ وَغَفَرَ لِي « فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » .

وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ وَيَحْذَرُ مَتَى تَجِيئُه شرْطَةُ فِرْعَوْنَ وَلَهمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ .

وَأَصْبَحَ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ مَتَى تَجِيئُهُ الشُّرْطَةُ وَيَأْخُذُونَهُ إِلَى الْجَبَّارِ

وَرَأَى الشُّرْطَةُ قَتِيلًا قِبْطِيًّا مِنْ خَدَمِ فِرْعَوْنَ فَفَتَّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ وَلٰـكِنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ .

وَمَنْ يَدُلُّهُمْ عَلَى الْقَاتِلِ وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مُوسٰى وَالْإِسْرَائِيلِيُّ ؟ !

وَأَصْبَحَ الْقَتِيلُ حَدِيثَ الْبَلَدِ وَشُغْلَ الْمَدِينَةِ ، كُلٌّ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَلَا يَعْلَمُ قَاتِلَه .

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَقَالَ لِلشُّرْطَةِ : لَابُدَّ أَنْ تُفَتِّشُوا عَنِ الْقَاتِلِ .

١٣ — يظهر السر

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي يَرَى مُوسٰى ذٰلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ فِي قِتَال وَخِصَامٍ مَعَ قِبْطِيٍّ آخَرَ .

وَمَا اسْتَحَى الْإِسْرَائِيلِيُّ بَلْ صَرَخَ وَنَادٰى مُوسٰى لِنُصْرَتِهِ .

قَالَ مُوسٰى إِنَّكَ رَجُلٌ وَقِحٌ ، أَلَا تَزَالُ فِي قِتَالٍ وَجِدَالٍ مَعَ النَّاسِ وَلَا تَزَالُ تَصْرَخُ وَتُنَادِينِي .

أَلاَ أَزَالُ أَنْصُرُكَ وَأُسَاعِدُكَ « إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ » .

وَلٰـكِنْ أَرَادَ مُوسٰى أَنْ يُؤَدِّبَ الْقِبْطِيَّ قَلِيلاً وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمَا .

وَرَأَى الْإِسْرَائِيلِيُّ غَضَبَ مُوسٰى وَسَمِعَ مَلاَمَه .

وَخَافَ أَنْ يَضْرِبَه مُوسٰي فَتَكُونَ الْقَاضِيَةَ ، كَمَا ضَرَبَ الْقِبْطِى فَكَانَتِ الْقَاضِيَةَ .

« فَقَالَ يَامُوسٰى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » .

هُنَالِكَ عَرَفَ الْقِبْطِيُّ أَنَّ مُوسٰى هُوَ قَاتِلُ أَمْسِ .

وَذَهَبَ الْقِبْطِيُّ وَأَخْبَرَ الشُّرْطَةَ بِأَنَّ مُوسٰى هُوَ الْقَاتِلُ وَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَغَضِبَ قَالَ أَذٰلِكَ الْفَتَىٰ رَبِيبَ الْقَصْرِ وَرَضِيعَ الْمُلْكِ ؟

وَلٰـكِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَنْجُو مَوسٰى مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتِه .

إنَّ مُوسَى لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يَقْتُلَ الْقِبْطِيَّ بَلْ ضَرَبَهُ ضَرْبَةً كانَتِ الْقَاضِيَةَ .

وَلٰكِنَّ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتَه لاَ يُسَلِّمُونَ ذٰلِكَ وَلاَ يَقْبَلُونَ لِمُوسَى عُذْراً .

إنَّ اللّٰهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَذْهَبَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِ مُوسَى

إنَّ اللّٰهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ خَلاَصُ بَنِي إسْرائِيلَ عَلَى يَدِ مُوسَى .

إنَّ اللّٰهَ قَدْ قَدَّرَ أَنْ يُخْرِجَ مُوسَى النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللّٰهِ تَعَالَى .

وَكَيْفَ يَكُونُ ذٰلِكَ إذَا وَصلَتْ إلَيْهِ يَدُ الشُّرْطَةِ الظَّالِمِينَ .

وَكانَ رِجَالُ فِرْعَوْنَ وَوُزَرَاؤهُ يَتَشَاوَرُونَ وَيَعْزِمُونَ عَلَى قَتْلِ مُوسَى .

وَكانَ رَجُلٌ يَسْمَعُ كلَّ ذٰلِكَ وَيَعْرِفُه فَجَاءَ إلى مُوسَى وَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ وَقَالَ « أُخْرُجْ إنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » .

« فَخَرَجَ مِنهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

١٤ – من مصر إلى مدين

وَلٰكِنْ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ مُوسَى، وَمِصْرُ كُلُّهُ مَمْلَكَةٌ لِفِرْعَوْنَ ؟ !

وَشُرْطَةُ فِرْعَوْنَ بِالْمِرْصَادِ ، وَلَهُمْ عُيُونُ الْغُرَابِ وَشَامَّةُ النَّمْلِ !

أَلْهَمَ اللهُ مُوسَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَدْيَنَ الْبَلَدِ الْعَرَبِي ، حَيْثُ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ يَد فِرْعَوْنَ .

إِنَّ مَدْيَنَ بَادِيَةٌ وَقُرًى لَيْسَ فِيهَا مَدَنِيَّةُ مِصْرَ .

وَلَيْسَ فِيهَا قُصُورُ مِصْرَ وَأَسْوَاقُ مِصْرَ .

وَلٰكِنَّهَا بِلاَدٌ سَعِيدَةٌ لأَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنْ فِرْعَوْنَ .

وَإِنَّهَا سَعِيدَةٌ لأَنَّهَا بِلاَدٌ حُرَّةٌ لَيْسَتْ تَحْتَ حُكْمِ فِرْعَوْنَ .

يا حبّذا الْبَداوَةُ مَعَ الْحُرِّيّةِ وَالْعَدْلِ .

وَيا شَقَاوَةَ الْمَدَنِيَّةِ مَعَ الْعُبُودِيّةِ وَالذُّلِّ .

هُنالِكَ يُصْبِحُ كلُّ أَحَدٍ لا يَخافُ سَطْوَةَ فِرْعَوْنَ وَقَهْرَه .

وَهُنالِكَ يَبِيتُ كُلُّ أَحَدٍ لا يَخافُ شُرْطَةَ فِرْعَوْنَ وَشَرَّهُ هُنالِكَ لا تُذْبَحُ الْأَبْناء .

قَصَدَ مُوسى مَدْيَنَ . وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ خائِفاً يَتَرَقَّبُ أَيَتْبعُهُ أَحَدٌ وَلٰكِنْ نامَ عَنْهُ الشُّرْطَةُ .

خَرَجَ مُوسٰى عَلَى اسْمِ اللهِ يَدْعُو اللهَ وَيَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ .

« وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسٰى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

١٥ – فى مدين

وَصَلَ مُوسَى إلى مَدْيَنَ ، لَا يَعْرِفُ أَحَداً وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ .

فَمَنْ يَأْوِى إلَيْهِ فِى اللَّيْلِ ؟ وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟

تَحَيَّرَ مُوسَى وَلَكِنَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُهُ !

وَكَانَ هُنَالِكَ بِئْرٌ يَسْقِى عَلَيْهَا النَّاسُ غَنَمَهُمْ وَمَاشِيَتَهُمْ .

وَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ غَنَمَهُمَا وَتَنْتَظِرَانِ أَنْ يَسْقِىَ النَّاسُ فَتَسْقِيَا .

رَأَى مُوسَى ذَلِكَ وَفِى قَلْبِهِ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَشَفَقَةُ الْأَبِ الرَّحِيمِ .

فَقَالَ : لِمَاذَا لَا تَسْقِيَانِ ؟

قَالَتَا : لَا يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَسْقِىَ غَنَمَنَا حَتَّى يَسْقِىَ النَّاسُ ، لِأَنَّهُمْ أَقْوِيَاءُ . وَنَحْنُ ضُعَفَاءُ ، وَلِأَنَّهُمْ رِجَالٌ وَنَحْنُ إِنَاثٌ

وَكأنما عَرَفَتَا أَنّ مُوسىٰ سَيَسْأَلهُمَا : فَلِمَاذَا لَا يَسْقِي أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ بَيْتِكُنَّ ؟

فَسَبَقَتَا وَقَالَتَا : « وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

وَهَاجَ فِي مُوسىٰ حَنَانُ الْكَرِيمِ وَسَقَىٰ لَهُمَا وَذَهَبَتَا .

وَأَيْنَ يَذْهَبُ مُوسىٰ الآنَ ؟ !

وَإِلَى أَيْنَ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟ ! إِنَّهُ لا يَعْرِفُ أَحَداً وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ !

« ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » .

١٦ — الطلب

وَوَصَلَتِ الْجَارِيَتَانِ إِلَى الْبَيْتِ قَبْلَ الْمِيعَادِ فَتَعَجَّبَ أَبُوهُمَا وَسَأَلَهُمَا عَنِ السَّبَبِ .

وَقَالَ لَهُمَا : مَا أَعْجَلَكُمَا يَا بِنْتَيَّ ، وَكَيْفَ وَصَلْتُمَا الْيَوْمَ قَبْلَ الْمِيعَادِ ؟

قَالَتِ السَّيِّدَتَانِ : قَدْ قَدَّرَ اللهُ لَنَا رَجُلًا كَرِيمًا سَقَى لَنَا .

تَعَجَّبَ الشَّيْخُ وعَرَفَ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ لِأَنَّ أَحَداً لَمْ يَرْحَمْهُنَّ يَوْماً .

قَالَ الشَّيْخُ : وَأَيْنَ تَرَكْتُمَا الرَّجُلَ ؟

قَالَتَا : تَرَكْنَاهُ فِي مَكَانِهِ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ لَيْسَ لَهُ مَأْوَى !

قَالَ الشَّيْخُ : مَا أَحْسَنْتُمَا يَا بِنْتَيَّ ، رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا وَلَيْسَ لَهُ مَأْوَى فِي الْبَلَدِ .

إِلَى مَنْ يَأْوِي فِي اللَّيْلِ ، وَأَيْنَ يَبِيتُ ؟ !

إِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الضِّيَافَةِ ، وَإِنَّ لَهُ عَلَيْنَا حَقَّ الْإِحْسَانِ !

لِتَذْهَبْ إِحْدَاكُمَا وَتَأْخُذْهُ مَعَهَا .

« وَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » .

وَعَرَفَ مُوسَى أَنَّ اللهَ قَدْ أَجَابَ دُعَاءَهُ وَبَوَّأَ لَهُ ، فَمَا أَبَى .

وَخَرَجَ مُوسَىٰ أَمَامَهَا لِئَلَّا يَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا ، وَمَشَىٰ مُوسَىٰ مَشْيَ الْكِرَامِ .

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّيْخِ سَأَلَهُ عَنْ اسْمِهِ وَوَطَنِهِ وَخَبَرِهِ .

وَأَخْبَرَ مُوسَىٰ خَبَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ .

سَمِعَ الشَّيْخُ كُلَّ ذَٰلِكَ بِصَبْرٍ وَهُدُوءٍ ، وَلَمَّا انْتَهَىٰ مُوسَى مِنْ قِصَّتِهِ .

« قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

١٧ — الزواج

وَأَقَامَ مُوسَى عِنْدَهُمْ مَقَامَ ضَيْفٍ كَرِيمٍ ، بَلْ حَلَّ مِنْهُمْ مَحَلَّ الْوَلَدِ الْعَزِيزِ .

وَقَالَتْ سَيِّدَةُ لِوَالِدِهَا يَوْماً فِي بَسَاطَةٍ وَطَهَارَةٍ .

« يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ » .

قَالَ الشَّيْخُ : وَمَا عِلْمُكِ بِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ يَا بِنْتِي ؟

قَالَتْ : أَمَّا قُوَّتُه فَلِأَنَّهُ رَفَعَ الْغِطَاءَ عَنِ الْبِئْرِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَرْفَعُهُ إِلَّا جَمَاعَةٌ .

وَأَمَّا أَمَانَتُهُ يَاأَبَتِ فَلِأَنَّهُ مَشَى أَمَامِي لَا يَنْظُرُ إِلَّا طُولَ الطَّرِيقِ .

وَلَابُدَّ لِلْأَجِيرِ وَلَابُدَّ لِلْخَادِمِ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا أَمِينًا .

فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَوِيًّا ضَعُفَ عَنِ الْعَمَلِ .

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ أَمِينًا لَمْ تَنْفَعْنَا قُوَّتُهُ مَعَ خِيَانَتِه .

وَوَافَقَ كَلَامُ السَّيِّدَةِ هَوًى فِي قَلْبِ الشَّيْخِ وَلَٰكِنَّهُ فَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَوَالِدٍ .

وَفَكَّرَ فِي الْمَسْأَلَةِ كَشَيْخٍ عَاقِلٍ .

قَالَ الشَّيْخُ فِي نَفْسِهِ : مَنْ ذَا يَكُونُ أَحَقَّ مِنْ هٰذَا الْفَتَى بِأَنْ يَكُونَ صِهْرًا لِي .

وَأَيْنَ أَجِدُ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلَ مِنْ هٰذَا الشَّابِّ ؟ !

أَمَّا فِي مَدْيَنَ فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا أَهْلًا لِذَلِكَ !

وَلَعَلَّ اللهَ قَدْ سَاقَ هٰذَا الْفَتَى إِلَى لِيَكُونَ لِي صِهْراً وَوَزِيراً .

فَقَالَ فِي وَقَارٍ وَشَفَقَةٍ وَحِكْمَةٍ :

« إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ » .

وَهٰذَا هُوَ صَدَاقُكَ ، أَمَّا هٰذِهِ السَّنَوَاتُ الثَّمَانِيَةُ فَلَا بُدَّ مِنْهَا .

« فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

خَافَ الشَّيْخُ أَنْ يَذْهَبَ الشَّابُّ بِبِنْتِهِ وَيَبْقَى وَحِيداً ، وَرَأَى الشَّيْخُ أَنْ يُجَرِّبَ الشَّابَّ أَيْضاً حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَدَّعَهُ .

وَافَقَ مُوسَى عَلَى ذَلِكَ وَرَأَى أَنَّ هٰذَا مِنَ اللهِ وَأَنَّ اللهَ سَيُبَارِكُ فِي ذٰلِكَ .

إنَّ اللهَ قَدْ سَاقَهُ إلَى مَدْيَنَ وَأَرْسَلَهُ إلَى الشَّيْخِ وَأَلْقَى فِي قَلْبِهِ حَنَانًا وَحُبًّا .

فَقَالَ : « ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ » .

وَلٰكِنْ أَرَادَ مُوسَى — بِحِكْمَتِهِ وَعَقْلِهِ — أَنْ يَحْفَظَ لَهُ حَقَّ الْخِيَارِ لَعَلَّهُ يَسْأَمُ فَقَالَ :

« أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ » .

١٨ — إلى مصر

« وَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ سَارَ بِأَهْلِهِ » وَوَدَّعَ الشَّيْخُ وَوَدَّعَهُ الشَّيْخُ وَدَعَا لَهُ .

عَلَى بَرَكَةِ اللهِ يَا وَلَدِي ! فِي أَمَانِ اللهِ يَا بِنْتِي !

وَسَافَرَ مُوسَى بِأَهْلِهِ ، وَاللَّيْلُ كُلُّهُ بَرْدٌ وَظَلَامٌ

وَلٰكِنْ أَيْنَ النَّارُ فِي الصَّحْرَاءِ ؟

وَمَاذَا يَصْنَعَانِ إِذَا لَمْ يَجِدَا نَارًا يَصْطَلِيَانِ بِهَا ، وَلَمْ يَجِدَا نُورًا يَهْتَدِيَانِ بِهِ ؟!

وَبَيْنَهُمَا يَسِيرَانِ وَمُوسَى يَبْحَثُ عَنْ نَارٍ « إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى » .

وَسَارَ مُوسَى قِبَلَ النَّارِ عَلَى جَنَاحِ الشَّوْقِ .

« فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » .

هُنَالِكَ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَأَوْحَى إِلَيْهِ

« وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ » .

وَكَانَ فِي يَدِ مُوسَى عَصًا كَانَ يَحْمِلُهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا .

وَكَانَ مُوسَى لَا يَدْرِي مَا هَذِهِ الْعَصَا فَقَالَ اللهُ تَعَالَى :

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يامُوسَى » .

وَأَجابَ مُوسَى فِي بِسَاطَةٍ وَسَذَاجَةٍ .

« هِيَ عَصَايَ »

وَأَخَذَ مُوسَى يَعُدُّ فَوَائِدَ هٰذِهِ الْعَصَا فِي تَفْصِيلٍ لأَنَّهُ أرَادَ أَنْ يُكلِّمَ اللّهَ وَيَكُونَ حَدِيثُه طَوِيلاً

« هِيَ عَصَايَ أَتوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى »

« قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى »

« فأَلْقَاهَا فإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » .

« قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى » .

وَمَنَحَ مُوسَى آيَةً ثَانِيَةً ، هِيَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فقَالَ :

« وَاضْمُمْ يَدكَ إِلَى جَناحِكَ تَخْرُجْ بيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى »

١٩ – اذهب إلى فرعون إنه طغى

وَأَمَرَ اللهُ مُوسَى بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَشْرَعَ عَمَلَهُ الَّذِي خَلَقَهُ لِأَجْلِهِ .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ أَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ .

إن قَوْمَ فِرْعَوْنَ كَفَرُوا بِاللهِ ، إِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَفْسَدوا فِي أَرْضِ اللهِ .

إِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ .

فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ « إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ » .

لَكِنْ كَيْفَ يَذْهَبُ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ وَكَيْفَ يُوَاجِهُ الْجَبَّارَ .

وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الْقِبْطِي بِالْأَمْسِ وَمَا أَمْسِ بِبَعِيدٍ !

وَهُوَ الَّذِي خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، وَيَعْرِفُهُ الشُّرْطَةُ وَيَعْرِفُهُ أَهْلُ الْقَصْرِ .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ».

وَذَكَرَ مُوسَىٰ أَنَّ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةً .

وَلَٰكِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْرِفُ ذَٰلِكَ كُلَّهُ وَيُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ مُوسَىٰ رَغْمَ ذَٰلِكَ كُلِّهِ .

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ » .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ » .

« وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ » .

« قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَٰتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ » .

« فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ »

« أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

وَأَوْصَى اللهُ مُوسَى وَهَارُونَ بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ مَعَ فِرْعَوْنَ .
إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ مَعَ أَعْدَائِهِ إِلَى حَدٍّ فَقَالَ :
« فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

٢٠ — أمام فرعون

وَجَاءَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَامَا فِي مَجْلِسِهِ يَدْعُوَانِهِ إِلَى اللهِ .

وَغَضِبَ الْجَبَّارُ مِنْ جَرَاءَةِ مُوسَى وَقَالَ فِي عُلُوٍّ وَكِبْرٍ .
مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ حَتَّى تَقُومَ فِي مَجْلِسِي وَتَعِظَنِي .
أَلَسْتَ ذَلِكَ الْغُلَامَ الَّذِي الْتَقَطْنَاهُ مِنَ الْبَحْرِ ؟ !
« أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ » .
« وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .
وَلَمْ يَغْضَبْ مُوسَى وَلَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَجْحَدْ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بَلْ أَجَابَ فِي صَرَاحَةٍ وَوَقَارٍ .
« قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ، فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ

لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وَقَالَ مُوسَى: إِنَّكَ يَافِرْعَوْنُ تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَلَكِنْ لَاتَنْظُرُ لِمَاذَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ أَنْ تُرَبِّيَنِي؟.

إنكَ لَوْلَمْ تَأْمُرْ بِقَتْلِ الْأَطْفَالِ لَمَا أَلْقَتْنِي أُمِّي فِي النِّيلِ وَمَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ.

وَهَلْ هٰذِهِ نِعْمَةٌ تُعَدُّ وَتُذْكَرُ فِي جَنْبِ ظُلْمِكَ وَقَسَاوَتِكَ؟.

إِنَّكَ عَامَلْتَ قَوْمِي كُلَّهُمْ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ.

وَكُنْتَ تَزْجُرُهُمْ زَجْرَ الْكِلَابِ.

وَكُنْتَ تَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ.

فَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ إِذَا كَفَلْتَ طِفْلاً مِنْهُمْ؟! وَذَلِكَ أَيْضاً عَنْ جَهْلٍ وَخَطَأٍ!

«وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

٢١ — الدعوة إلى الله

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَلَمْ يَجِدْ جَوَابًا ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ فَقَالَ :

« وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » الَّذِي أَسْمَعُكَ تَذْكُرُهُ ؟ .

« قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ » .

غَضِبَ فِرْعَوْنُ مِنْ هذَا الْجَوَابِ وَأَرَادَ أَنْ يَغْضَبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَيَتَعَجَّبُوا .

« فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : أَلَا تَسْتَمِعُونَ » ؟

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسَى الْكَلَامَ بَلْ ضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً .

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ »

وَاشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَصْبِرْ وَقَالَ :

« إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسَى الْكَلَامَ وَضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَالِثَةً .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَشْغَلَ مُوسَى عَنْ هٰذَا الْمَوْضُوعِ الْمُرِّ .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُثِيرَ غَضَبَ مَلَئِه .

فَقَالَ : « وَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولٰى ؟ ! »

قَالَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ : إِذَا قَالَ مُوسَى إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ .

قُلْت : فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ !

وَإِذَا قَالَ مُوسَى إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ وَسَفَاهَةٍ .

غَضِبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَقَالُوا إِنَّ مُوسَى سَبَّ آبَاءَنَا .

وَلٰكِنَّ مُوسَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ مُوسَى عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَقَالَ :

« عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » .

ثُمَّ أَنْشَأَ مُوسى يَقُولُ مَا كانَ فِرْعَوْنُ يَفِرُّ مِنْهُ وَيَتَخَلَّصُ :

« لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسى ، الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَقَالَ مَا تَقُولُهُ الْمُلُوكُ كُلُّهُمْ إِذَا عَجَزُوا وَغَضِبُوا .

«قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

٢٢ – معجزات موسى

وَلَمَّا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ سَهْمَهُ ، أَرَادَ مُوسى أَنْ يَرْمِيَهُ بِسَهْمِ اللهِ .

« قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ ؟! »

« قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

« فَأَلْقَى مُوسى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ » .

« وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ »

وَوَجَدَ فِرْعَوْنُ مَقَالاً يَقُولُهُ لِجُلَسَائِهِ .

« قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » .

وَوَافَقَ أَهلُ الَمجْلِسِ « قَالُوا إِنَّ هذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ » .

« قَالَ مُوسٰى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » .

وَرَمٰى فِرْعَوْنُ مُوسٰى بِسَهْمٍ آخَرَ فَقَالَ :

« قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ » .

وَأَرَادَفِرْعَوْنُ أَنْ يُخَوِّفَ الْمَلأَ مِنْ مُوسٰى فِعْلَ الْمُلُوكِ .

فَقَالَ : « يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » .

أَشَارَ الْمَلأُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَجْمَعَ السَّحَرَةَ مِنْ مَمْلَكَتِهِ وَيَرْمِيَ بِهِمْ مُوسٰى .

وَهٰكَذَا كانَ : نُودِيَ فِي مَمْلَكَةِ مِصْرَ « أَلاَ مَنْ كانَ يعْرِفُ السِّحْرَ فَلْيَحْضُرْ إلى الْمَلِكِ » .

وَاجْتَمعَ السَّحَرَةُ مِنْ كلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِى الْمَمْلَكَةِ .

وَكانَ يوْمُ الزِّينَةِ هُوَ الْمِيعَادَ .

« وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إنْ كانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ » ؟ .

٢٣ — إلى الميدان

وَتَرَى النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ بُيُوتِهِمْ ضُحًى ا وَيَمْشُونَ إلَى الْمَيْدَانِ أَفْوَاجاً .

وَيَمْشُونَ إلَى الْمِيدَانِ أَطْفَالاً ، وَشُبَّانًا وَشُيُوخاً ، وَرِجَالاً وَنِسَاءً .

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْبَيْتِ إلاَّ مَرِيضٌ أوْ عَاجِزٌ .

وَلاَ تَسْمَعُ فِي الْمَطَرِيَّةِ[1] إلاَّ حَدِيثَ السِّحْرِ وَأَسْمَاءِ السَّحَرَةِ .

---

(١) قصبة مصر أيام الفراعنة .

هَلْ جَاءَ سَاحِرُ أُسْوَانَ[١] الأَكْبَرُ أَيْضًا ؟

نَعَمْ وَسَاحِرُ الأُقْصُرِ[٢] وَسَاحِرُ الجِيزَةِ[٣] الشَّهِيرُ !

مَاذَا تَرَى يا أَخِي مَنْ يَغْلِبُ ؟

إِنَّ مِصْرَ قَدْ أَلْقَتْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا تَرَى يَغْلِبُهُمْ أَحَدٌ !

وَكَيْفَ يَغْلِبُهُمْ مُوسَى وَأَخُوهُ وَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ ؟

نَشَأَ فِي قَصْرِ المَلِكِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
وَكَانَ فِي مَدْيَنَ سِنِينَ .

فَأَيْنَ تَعَلَّمَا السِّحْرَ ؟

أَفِي مِصْرَ ؟ لاَ !

أَفِي مَدْيَنَ ؟ مَا سَمِعْنَا أَنَّ هُنَالِكَ فَنًّا !

وَجَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَهُمْ بَيْنَ يَأْسٍ وَرَجَاءٍ وَلَعَلَّ اليَأْسَ
أَغْلَبُ ، اللهُ يَرْحَمُ ابْنَ عِمْرَانَ ! اللهُ يَنْصُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ !

وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَأَقْبَلُوا بِخُيَلَائِهِمْ وَفَخْرِهِمْ .

(١ — ٢ — ٣) مدن مصر القديمة .

وَخَرَجُوا فِي مَلَابِسَ مُلَوَّنَةٍ وَخَرَجُوا يَحْمِلُونَ الْعِصِيَّ وَالْحِبَالَ .

وَخَرَجُوا يَضْحَكُونَ وَيَمْرَحُونَ ، الْيَوْمَ يَوْمُ الْفَنِّ !

الْيَوْمَ يَرَى الْمَلِكُ صَنِيعَنَا ، الْيَوْمَ يَرَى الْقَوْمُ فَضْلَنَا !

« فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

وَهٰذِهِ هِيَ جَائِزَةُ الْمُلُوكِ ! وَهٰذَا عَطَاءُ الْمُلُوكِ !

وَهٰذَا الَّذِي يُخْدَعُ بِهِ الرِّجَالُ ! وَهٰذَا الَّذِي يُصَادُ بِهِ الْأَبْطَالُ !

وَفَرِحَ السَّحَرَةُ بِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ .

٢٤ — بين الحق والباطل

« قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ » .

« فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » .

وَرَأَى النَّاسُ عَجَبًا ، حَيَّاتٌ تَسْعَى فِى الْمَيْدَانِ ، وَدُهِشَ النَّاسُ وَتَرَاجَعُوا إِلَى الْخَلْفِ وَهَتَفُوا : حَيَّاتٌ ! حَيَّاتٌ !

وَصَاحَتِ النِّسَاءُ وَبَكَتِ الْأَطْفَالُ وَعَلاَ الْهُتَافُ فِى الْمَيْدَانِ : حَيَّاتٌ ! حَيَّاتٌ !

وَرَأَى مُوسَى مَا رَأَى النَّاسُ وَتَعَجَّبَ « فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » .

وَخَطَرَ فِى قَلْبِ مُوسَى خَاطِرُ خَوْفٍ ! وَلِمَاذَا لاَ يَخَافُ مُوسَى ؟

هٰذَا يَوْمُ الرِّهَانِ ! وَعِنْدَ الْامْتِحَانِ يُكْرَمُ الرَّجُلُ أَوْ يُهَانُ !

وَإِذَا غَلَبَ السَّحَرَةُ ـ لَا قَدَّرَ اللهُ ذٰلِكَ .

وَإِذَا غُلِبَ مُوسَى ـ لَا سَمَحَ اللهُ بِذٰلِكَ .

فَمَاذَا يَكُونُ ؟ العِيَاذُ بِاللهِ ! !

وَلَيْسَ غَلَبُ مُوسَى غَلَبَ رَجُلٍ ، بَلْ هُوَ غَلَبُ دِينٍ أَمَامَ مَلِكٍ .

بَلْ هُو غَلَبُ حَقٍّ أمامَ باطِلٍ

لَا قدّرَ اللهُ ذٰلكَ ! لَا سَمحَ اللهُ بِذٰلكَ !

وَلٰـكِنَّ اللهَ شَجَّعهُ وَقالَ :

« لَا تَخَفْ إنّكَ أَنْتَ الأَعْلَى » .

« وَأَلقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلقَفْ ما صَنَعُوا إنَّما صَنَعُوا كَيْد سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » .

« قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إنّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إنّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » .

« وَأَلْقَى مُوسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقفُ ما يَأْفِكُونَ » .

« فوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ » .

وَدَهِشَ السَّحَرَةُ وَبُهِتُوا .

أَيُّ شَيْءٍ هٰذَا ؟ إنّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَصْلَهُ .

وَإنّا نَعْرِفُ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ .

وَنَحْنُ أَسَاتِذَةُ الْفَنِّ ! وَنَحْنُ أَئِمَّةُ الْفَنِّ !

هٰذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ ! هٰذَا لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ !

لَوْ كَانَ مِنَ السِّحْرِ لَضَرَبْنَا السِّحْرَ بِالسِّحْرِ وَقَرَعْنَا الْفَنَّ بِالْفَنِّ !

ولٰكِنِ اضْمَحَلَّ فَنُّنَا أَمامَ هٰذَا ، وَذَابَ كَمَا يَذُوبُ النَّدَى أَمامَ الشَّمْسِ .

فَمِنْ أَيْنَ هٰذَا ؟ هٰذَا مِنَ اللهِ !

اقْتَنَعَ السَّحَرَةُ بِأَنَّ مُوسى نَبِيٌّ وَأَنَّ اللهَ قَدْ مَنَحَهُ مُعْجِزَةً فَصَرَخُوا وَهَتَفُوا :

« آمَنَّا بِرَبِّ هٰرُونَ وَمُوسى » .

« وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسى وَهٰرُونَ » .

٢٥ — وعيد فرعون

وَجُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ !

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ وَبَرَقَ فِرْعَوْنُ وَرَعَدَ .

مِسْكِينٌ فِرْعَوْنُ وَقَعَ مالَمْ يَكُنْ يَرْجُوهُ !

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَ مُوسى بالسَّحَرَةِ فَأَصْبَحَ السَّحَرَةُ جُنْدَ مُوسى .

إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ مُوسى فَجَاءَ بِالسَّحَرَةِ فَإِذَا بِهِمْ أَولُ الْمُؤْمِنِينَ !

إِنَّ سِهَامَهُ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الأجْسَامِ .

وأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الأَلْسِنَةِ .

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئًا أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَقَالَ فِي كِبْرٍ وَجَبَرُوتٍ .

« آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » ؟ !

وَرَمَاهُمْ فِرْعَوْنُ بِسَهْمٍ مِنْ سِهَامِ الْمُلُوكِ فَقَالَ :

« إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » !

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَانٍ فَقَالَ :

« إِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » ! !

وَرَمَاهُمْ بِسَهْمٍ ثَالِثٍ مَسْمُومٍ هُوَ السَّهْمُ الْأَخِيرُ فِي كِنَانَةِ الْمُلُوكِ .

« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » .

وَتَلَقَّى الْمُؤْمِنُونَ السِّهَامَ كُلَّهَا بِجُنَّةِ الْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ وَقَالُوا :

« لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » .

« إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وَقَالُوا فِي إِيمَانٍ وَحَمَاسَةٍ :

« إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى » .

٢٦ — سفاهة فرعون

وَاهْتَمَّ فِرْعَوْنُ بِأَمْرِ مُوسَى كَثِيراً وَطَارَ نَوْمُهُ .

وَبَقِيَ فِرْعَوْنُ لَا يَطِيبُ لَهُ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ .

وَأَثَارَ غَضَبَهُ الْآخَرُونَ أَيْضاً وَقَالُوا :

« أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ » ؟!

وَغَضِبَ فِرْعَوْنُ وَثَارَ .

« قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَصُدَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَهْلَ مِصْرَ عَنْ مُوسى بِكُلِّ حِيلَةٍ .

« وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ * وَلَا يَكادُ يُبِينُ » !

وَقالَ فِرْعَوْنُ فِي رَزَانَةٍ وَحِلْمٍ :

« يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي » !!

كَأَنَّهُ فَتَّشَ كَثِيراً وَفَكَّرَ كَثِيراً وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ .

وَقالَ فِي سَفَاهَةٍ وَجُنُونٍ :

« فَأَوْقِدْ لِي يا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وَأَوْقَدَ هَامَانُ عَلَى الطِّينِ وَبَنَى صَرْحاً وَلَكِنْ إِلَى أَيْنَ؟

تَعِبَ هَامَانُ وَتَعِبَ الْبَنَّاؤُونَ وَنَفِدَ الطِّينُ وَالآجُرُ .

وَلَا يَزَالُ فِرْعَوْنُ بَعِيدًا لَمْ يَصِلْ إِلَى السَّحَابِ فَضْلاً عَنِ الْقَمَرِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْقَمَرِ فَضْلاً عَنِ الشَّمْسِ

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الشَّمْسِ فَضْلاً عَنِ الْكَوَاكِبِ .

وَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْكَوَاكِبِ فَضْلاً عَنِ السَّمَاءِ .

وَخَابَ فِرْعَوْنُ وَخَجِلَ وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ .

مِسْكِينٌ أَلَا يَدْرِي أَنَّ اللّٰهَ « خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى » .

« لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » .

« وهُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إلٰهٌ وفِى الأَرْضِ إلٰهٌ » .

ولَمْ يَجِدْ فِرْعَوْنُ حِيلَةً إلَّا أَنْ يَقْتُلَ مُوسى وحُجَّتُهُ أَنَّ مُوسى يُظْهِرُ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ .

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ» .

٢٧ — مؤمن آل فرعون

وَلَمَّا أَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَقْتُلَ مُوسى قَامَ رَجُلٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ وَقَالَ :

« أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللّٰهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : لِمَاذَا تَتَعَرَّضُونَ لِمُوسى وَلِمَاذَا تُؤْذُونَهُ ؟

إذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَاتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ وَخَلوا سَبِيلَهُ .

« إنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ » .

وَإِذَا آذَيْتُمُوهُ وَوَقَعْتُمْ بِهِ وَكَانَ نَبِيًّا فَلَكُمْ الْوَيْلُ .

« وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ » .

وَيَا إِخْوَانِي لَا تَغْتَرُّوا بِمُلْكِكُمْ ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِقُوَّتِكُمْ وَجُنُودِكُمْ .

« يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟! »

وَكَانَ جَوَابُ فِرْعَوْنَ أَنْ قَالَ :

« مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

وَأَرَادَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنْ يُحَذِّرَ قَوْمَهُ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَمَصِيرَ الظَّالِمِينَ فَقَالَ :

« وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ » .

وَخَوَّفَهُمُ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَمَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟

« يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

« الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » .

« وَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

يَوْمَ يُنَادِي الْمَلِكُ الْجَبَّارُ : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

يَوْمَ يَفْزَعُ النَّاسُ وَيَصْرُخُونَ وَيُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَوْمَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ .

فَقَالَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ :

« وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ » .

وَقَالَ الرَّجُلُ الرشِيدُ : إِنَّ اللهَ قَدْ وَهَبَكُمْ نِعْمَةَ

وَلٰكِنَّكُمْ مَا عَرَفْتُمْ فَضْلَهَا وَمَا قَدَّرْتُمُوهَا حَقَّ قَدْرِهَا حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ تَأَسَّفْتُمْ عَلَيْهَا .

ذٰلِكَ يُوسُفُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ وَسَلَامُهُ الَّذِى مَا عَرَفْتُمُوهُ وَلَمْ تُقَدِّرُوهُ قَدْرَهُ .

وَلٰكِنَّهُ لَمَّا مَاتَ قُلْتُمْ : سُبْحَانَ اللهِ نَبِيٌّ وَلَا كَيُوسُفَ .

مَلِكٌ وَلَا كَيُوسُفَ ! رَجُلٌ وَلَا كَيُوسُفَ !

وَمَنْ لَنَا بِنَبِيٍّ بَعْدَهُ ؟ ! مَنْ لَنَا بِمِثْلِهِ ؟ !

أَبَدًا ! لَنْ يَأْتِيَ مِثْلُهُ !

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا » .

كَذٰلِكَ تَفْعَلُونَ بَعْدَ هٰذَا النَّبِيِّ أَيْضًا ! وَتَنْدَمُونَ !

٢٨ — نصيحة الرجل

وَوَعَظَ الرَّجُلُ قَوْمَهُ وَبَذَلَ لَهُمْ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ .

« وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ » .

وَعَلِمَ الرَّجُلُ الرَّشِيدُ أَنَّ الْقَوْمَ فِي سَكْرَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَأَنَّ فِرْعَوْنَ مَغْرُورٌ بِمُلْكِهِ وَقُوَّتِهِ .

وَلٰكِنَّ هٰذِهِ الْحَيَاةَ حُلْمٌ مِنَ الْأَحْلَامِ وَأَنَّ الدُّنْيَا ظِلٌّ زَائِلٌ .

وَعَرَفَ الرَّجُلُ مَا يَمْنَعُ الْقَوْمَ مِنْ اتِّبَاعِ مُوسٰى ، ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ سُكَارَى بِسَكْرَةِ الدُّنْيَا .

وَالسَّكْرَانُ مَا يَسْمَعُ وَمَا يَشْعُرُ .

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ صَوْتَ مُوسٰى .

فَأَرَادَ أَنْ يُنَبِّهَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ فَقَالَ :

« يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » .

وَطَفِقَ الْجُهَّالُ مِنْ قَوْمِهِ يَدْعُونَهُ إِلَى الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى دِينِ الْآبَاءِ .

« لَاجَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ » .

وَلَمَّا يَئِسَ الرَّجُلُ مِنْ هِدَايَتِهِمْ وَسَئِمَ الرَّجُلُ مِنْ بَلَادَتِهِمْ تَرَكَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ :

« فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

وَغَضِبَ النَّاسُ وَأَرَادَ آلُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَقْتُلُوهُ وَلَكِنَّ اللهَ عَصَمَهُ وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَهُ .

« فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ » .

٢٩ — زوج فرعون

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الْأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْأَلْسِنَةِ.

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِي مِصْرَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَيْئًا أَوْ يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَكَانَ إِذَا آمَنَ أَحَدٌ بِمُوسى فِي أَقْصى مَمْلَكَةِ مِصْرَ جُنَّ جُنُونُ فِرْعَوْنَ .

وَقَامَ فِرْعَوْنُ وَقَعَدَ ، وَبَرَقَ فِرْعَونُ وَرَعَدَ .

وَقَالَ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَنْ يُؤْمِنَ بِمُوسى قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَهُ ؟!

يَعِيشُ فِي مَمْلَكَتِي وَيَعْصِينِي ، وَيَأْكُلُ رِزْقِي وَيَكْفُرُنِي ؟!

أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ رَجُلٍ فِي مِصْرَ مِنْ نَفْسِهِ !

وَيَنْسى فِرْعَوْنُ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي مَمْلَكَةِ اللهِ وَيَعْصِيهِ ، وَيَأْكُلُ رِزْقَ اللهِ وَيَكْفُرُ بِهِ .

وَأَرَاهُ اللهُ آيَةً فِي بَيْتِهِ ، آيَةً فِي أَهْلِهِ .

أَرَاهُ اللهُ أَنَّهُ مَلِكُ الْعُقُولِ كَمَا أَنَّهُ مَلِكُ الْأَجْسَامِ .

وَأَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْقُلُوبِ كَمَا أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْأَلْسِنَةِ .

وَأَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنَّ اللّٰهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

دَخَلَ الْإِيمَانُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَلَا يَمْلِكُ شَيْئًا .

وَآمَنَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِاللّٰهِ وَكَفَرَتْ بِفِرْعَوْنَ .

وَآمَنَتْ بِمُوسَى عَلَى رَغْمِ زَوْجِهِ مَلِكِ مِصْرَ .

آمَنَتْ بِمُوسَى أَعْلَمُ خَلْقِ اللّٰهِ بِفِرْعَوْنَ وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ

وَلَمْ يَصْنَعْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ شَيْئًا وَلَمْ يَشْعُرُوا بِذٰلِكَ وَلَهُمْ شَامَّةُ النَّمْلِ وَعُيُونُ الْغُرَابِ .

وَلَمْ يَشْعُرْ بِذٰلِكَ فِرْعَوْنُ وَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا .

وَلَوْ عَلِمَ بِذٰلِكَ فِرْعَوْنُ مَاذَا فَعَلَ ؟ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْجِسْمَ وَلٰكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ الْعَقْلَ .

وَإِنَّ لَهُ سُلْطَانًا عَلَى اللِّسَانِ وَلَيْسَ لَهُ عَلَى الْقَلْبِ سُلْطَانٌ .

وَلَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِى الدُّنْيَا أَنْ يَحُولَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .

إِنَّ لِفِرْعَوْنَ حَقًّا عَلَى زَوْجِهِ وَلٰكِنَّ حَقَّ اللهِ أَكْبَرُ .

عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا وَلٰكِنْ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَ أَبَوَيْهِ وَأَنْ يَكُونَ بِهِمَا بَارًّا رَشِيداً وَلٰكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يُطِيعَهُمَا فِى الشِّرْكِ .

« وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

وَاسْتَقَامَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَكَانَتْ تَعْبُدُ اللهَ فِى بَيْتِ عَدُوِّ اللهِ .

وَكانَتْ تَخَافُ اللهَ وَتَتَبَرَّأُ إِلَى اللهِ مِمَّا يَعْمَلُ فِرْعَوْنُ .

وَرَضِيَ اللهُ عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَأَنْجَاها اللهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَضَرَبَهَا اللهُ مَثَلاً لِلْمُؤْمِنِينَ لإِيمانِهَا وَشَجَاعَتِهَا .

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

٣٠ — محنة بنى إسرائيل

وَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ عَدَاوَةَ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، تَقَرَّبُوا إِلَى فِرْعَوْنَ بِعَدَاوَتِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ .

وَاجْتَرَأَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الأَطْفَالُ وَهَرَّتْهُمُ الْكِلابُ .

فَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِحْنَةٌ جَدِيدَةٌ ! وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بَلِيَّةٌ نَازِلَةٌ .

وَمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ يُسَلِّيهِمْ وَيُوصِيهِمْ بِالصَّبْرِ ، وَيَقُولُ لَهُمْ :

« اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وَسَئِمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هٰـذِهِ الْمِحْنَةَ وَهٰـذَا الْأَذَى وَقَالُوا لِمُوسٰى :

لَمْ تَنفَعْنَا شَيْئًا ! لَمْ تُغْنِ عَنَّا شَيْئًا !

« قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » .

وَلٰـكِنَّ مُوسٰى لَمْ يَجْزَعْ ! ولٰـكِنَّ مُوسٰى لَمْ يَيْئَسْ !

« قَالَ عَسٰى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » .

« وَقَالَ مُوسٰى يٰقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » .

« فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْـكٰفِرِينَ » .

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَمْنَعُ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ ، وَيَغْضَبُ إِذَا رَآهُمْ يَعْبُدُونَ اللهَ وَيُصَلُّونَ لَهُ .

وَكَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ لِلّٰهِ فِي أَرْضِهِ ، وَكَانَ يَغْضَبُ أَنْ يُعْبَدَ اللهُ فِي أَرْضِهِ .

مَا أَجْهَلَ فِرْعَوْنَ ! الْأَرْضُ لِلَّهِ لَا لِفِرْعَوْنَ !

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ عِبَادَ اللهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ عَلَىٰ أَرْضِ اللهِ ؟ !

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دَعَا إِلَى عِبَادَتِهِ عَلَى أَرْضِ اللهِ ؟ !

وَلٰـكِنَّ فِرْعَوْنَ مَا كَانَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ أَحَدًا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي بَيْتِهِ !

فَأَمَرَ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ مُوسَىٰ .

« اجْعَلُوا بُيُوتَــكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلوٰةَ » .

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَعَجَزَتْ شُرْطَتُه أَنْ يَحُولُوا بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِبَادَةِ اللهِ !

وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ؟ ! وَمَنْ يَحُولَ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَعِبَادَةِ اللهِ ؟ !

٣١ — المجـــاعات

وَلَمَّا طَغَى فِرْعَوْنُ وَأَسْرَفَ فِي الْغَفْلَةِ وَالْعِنَادِ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ .

إِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ! إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ !

وَكَانَ فِرْعَوْنُ بَلِيدًا جِدًّا ، ضَاعَتْ فِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ .

وَالْحِمَارُ لاَ يَتَنَبَّهُ حَتَّى يُضْرَبَ !

فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُنَبِّهَهُ !

وَمِصْرُ بِلاَدٌ مُخْصِبَةٌ خَضْرَاء ، بِلاَدُ الْخَيْرَاتِ وَالأَثْمَارِ وَبِلاَدُ الْحُبُوبِ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ بِلاَدًا بَعِيدَةً أَيَّامَ الْمَجَاعَةِ فِي عَهْدِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ .

وَكَيْفَ أَنْجَدَتْ مِصْرُ أَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ كَنْعَانَ !

وَالنِّيلُ هُوَ الَّذِي يَرْوِي أَرْضَ مِصْرَ وَيَسْقِي زُرُوعَهُمْ .

وَهُوَ مَنْبَعُ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ فِي مِصْرَ .

وَكَانَ فِرْعَوْن وَأَهْلُ مِصْرَ يَظُنُّونَ أَنَّ النِّيلَ هُوَ مِفْتَاحُ الرِّزْقِ .

وَأَنَّ مِصْرَ غَنِيَّةٌ بِالنِّيلِ عَنِ الْمَطَرِ وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الرِّزْقِ .

وَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .

وَأَنَّ النِّيلَ يَجْرِى بِأَمْرِهِ وَيَفِيضُ بِأَمْرِهِ .

وَأَمَرَ اللهُ النِّيلَ فَغَاضَ مَاؤُهُ وَذَهَبَ فِى الْأَرْضِ .

فَمَاذَا يَرْوِى زُرُوعَ أَهْلِ مِصْرَ ؟!

نَقَصَتْ ثَمَرَاتُهُمْ وَنَقَصَتْ حُبُوبُهُمْ وَكَانَتْ مَجَاعَةٌ بَعْدَ مَجَاعَةٍ !

وَعَجَزَ فِرْعَوْنُ وَعَجَزَ هَامَانُ وَعَجَزَتْ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ عَنْ كُلِّ حِيلَةٍ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ رَبَّهُمْ ، وَأَنَّ الرِّزْقَ بِيَدِ اللهِ !

وَلَٰكِنَّ ذَٰلِكَ لَمْ يَنْفَعْ فِرْعَوْنَ ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَهْلَ مِصْرَ وَلَمْ يُنَبِّهْهُمْ !

وَحَالَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ .

قَالُوا هٰذِهِ الْمَجَاعَاتُ وَهٰذِهِ السِّنُونَ مِنْ شُؤْمِ مُوسٰى وَقَوْمِهِ !

يا لَلْعَجَب ! أَلَمْ يَكُنْ موسى مِنْ قَبْلُ ؟! أَلَمْ يَكُنْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ؟!

بَلْ ذٰلِكَ مِنْ شُؤْمِ أَعْمَالِهِمْ !! بَلْ ذٰلِكَ مِنْ شُومِ كُفْرِهِمْ !

وَعَانَدَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَقَالُوا إِنَّا لَا نَخْضَعُ لِهٰذَا السِّحْرِ .

« وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

٣٢ – خمس آيات

وَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى .

أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمْطَارَ ، فَفَاضَ النِّيلُ .

وَأَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ وَأَمْطَرَتْ .

حَتَّى غَرِقَتِ الزُّرُوعُ وَالْحُقُولُ ، وَتَلِفَتِ الْحُبُوبُ وَالثِّمَارُ .

وَعَادَ الْمَطَرُ عَلَيْهِمْ وَبالاً .

وَبَيْنَمَا هُمْ يَشْكُونَ قِلَّةَ الْمَاءِ إِذَا هُمْ يَشْكُونَ كَثْرَةَ الْمِيَاهِ .

ثُمَّ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ الْجَرَادَ يَأْكُلُ الزُّرُوعَ وَالْحُقُولَ وَيَقَعُ عَلَى الْأَشْجَارِ فَلَا يَذَرُ مِنْهَا شَيْئًا .

وَعَجَزَتْ جُنُودُ فِرْعَوْنَ وَشُرْطَتُهُ عَنِ قِتَالِ جُنْدِ اللهِ .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ السِّهَامُ .

هُنَالِكَ عَلِمَ أَهْلُ مِصْرَ ضَعْفَ فِرْعَوْنَ ، وَعَجْزَ هامانَ ، وَقِلَّةَ حِيلَةِ الشُّرْطَةِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَعْتَبِروا ! وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يَتَنَبَّهُوا !

فَبَعَثَ اللهُ عَلَيهِمْ جُنْداً آخَرَ ، ذٰلِكَ هُوَ الْقُمَّلُ .

وَتَسَلَّطَ عَلَيهِمُ القُمَّلُ ، فالعِيَاذُ بِاللهِ ! القُمَّلُ فِي الفِرَاشِ ، وَالقُمَّلُ فِي الثِّيابِ ، وَالقُمَّلُ فِي الرَّأْسِ ، وَالقُمَّلُ فى الشَّعْرِ فَطارَ نَوْمُهُمْ وَباتُوا يَقْصَعُونَ[1] القُمَّل وَيَسُبُّونَهُ حَتّى يُصْبِحُوا .

وَكَيْفَ يُقَاتِلُونَهُ وَالقُمَّلُ لا تَعْمَلُ فِيهِ السُّيُوفُ وَلا تَعْمَلُ فِيهِ السِّهامُ ، وَلا يُنْجِدُهُمْ فى ذٰلِكَ جُنُودُهُمْ وَشُرْطَتُهُمْ .

ثُمَّ بَعَثَ اللهُ عَلَيهِمُ الضَّفادِعَ ، فَفِي الطَّعامِ ضَفادِعُ ، وَفى الشَّرابِ ضَفادِعُ ، وَبَيْنَ مَلابِسِهِمْ ضَفادِعُ .

وَسَئِمُوا هٰذِهِ الضَّفادِعَ وَتَنَغَّصَ عَيْشُهُمْ .

وانْتَشَرَتِ الضَّفادِعُ وفَشَتْ فى جَمِيعِ أَنْحاء الْبَيْتِ .

تِلْكَ تَنِقُّ[2] وهٰذِهِ تَثِبُ هُنا وتِلْكَ تَقْفِزُ هُناكَ .

وَلا يَقْتُلُونَ واحِدَةً إِلَّا وتَأْتى عَشْرٌ وَلا يُخْرِجُونَ واحِدَةً إِلَّا وتَظْهَرُ خَمسٌ كأَنَّها تُولَدُ فى الْبَيْتِ .

---

(١) قصع القملة بظفره : قتلها .

(٢) تصوت .

عَجَزَتِ الْحُرَّاسُ وعَجَزَتِ الشُّرْطَةُ عَنِ الضَّفَادِعِ .

وبَعَثَ اللهُ عَلَيهِمْ آيةً خَامسَةً ، ذلِكَ هُوَ الدَّمُ .

فَسَالَ الرُّعَافُ مِنْ آنافِهِمْ وضَعُفُوا وتَعِبُوا جِدًّا .

وعَجَزَ الْأَطِبَّاءُ عَنِ الْعِلَاجِ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ دَوَاءٌ .

وكُلَّما رَأَوْا آيَةً قَالُوا لِمُوسى ادْعُ لَنا رَبَّكَ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا هذَا الْبَلَاءَ ونَتُوبُ ونُؤْمِنُ ونُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إسرَائِيلَ .

فلمَّا كَشَفَ اللهُ عَنهُمُ الْبَلَاءَ نَكَثُوا عَهْدَهُمْ .

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيهِمُ الطُّوفَانَ والْجَرَادَ والْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيات مُفَصَّلَاتٍ فاسْتَكبَرُوا وكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ » .

٣٣ — الخروج

وضَاقَتْ عَلَى بَنِي إسرَائِيلَ أَرْضُ مِصرَ وهِيَ واسِعَةٌ .

وما يَصْنَعُونَ بِخِصْبِ مِصرَ وخَيرَاتِها وهُمْ فى سِجْنٍ يَذُوقُونَ كلَّ يَوْم صُنُوفاً مِنَ الْعَذَابِ والهَوَانِ ؟!

إلى متى يَصْبِرُونَ ، أليسُوا بَنِي آدمَ يَشْعُرُونَ بالأذى والألمَ ؟!

وأوحَى اللهُ إلى موسى أنْ يُسرِىَ بِبَنِي إسرائيلَ لَيْلاً ويخرُجَ بِهِمْ مِنْ مِصرَ .

وأحَسَّ بِذَلكَ شُرْطَةُ فِرْعَوْنَ ولهُمْ عُيُونُ الغُرَابِ وشَامَّةُ النَّمْلِ وأخْبَرُوا بِذَلكَ فِرْعَوْنَ .

سَارَ موسى بِبَنى إسرائيلَ فى اللّيْلِ نحْوَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ وهُمْ اثنا عَشَرَ سِبْطاً كُلُّ سِبْطٍ عَلَيْهِ أمِيرٌ .

والطّرِيقُ إلَى الشَّامِ طَرِيقٌ واضِحٌ مَعْلُومٌ ، بَرٌّ يَصِلُ بَيْنَ البَرَّيْنِ وقَدْ جَازَهُ موسى مَرَّتَيْنِ[1] .

ولٰكِنَّ موسى أرَادَ أمْراً وأرَادَ اللهُ أمْراً وكَانَ ما أرَادَهُ اللهُ .

---

(١) مرة ذهاباً إلى مدين ، ومرة إياباً إلى مصر .

أَخْطَأَ مُوسى الطَّرِيقَ ، وحَيْثُ أَخْطَأَ مُوسى أَصَابَ الْقَدَرُ .

ظَنَّ مُوسى أَنَّهُ يَسِيرُ بِبَنِي إِسرائيلَ إِلَى جَانِبِ الشَّمالِ .

فَإِذَا بِهِ قَدْ سَارَ بِهِمْ فِي ظَلَام اللَّيْـلِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ(١) .

وَإِذَا بِهِمْ أَمَامَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ تَتَلاطَمُ أَمْوَاجُهُ .

يَاحَافِظُ ! يَا سَاتِرُ ! أَيْنَ نَحْنُ ؟

كانَ الْجَوَابُ إِنَّنا أَمَامَ الْبَحْرِ !

وَالْتَفَتُوا إِلَى الْوَرَاء فَإِذَا بِغُبَارٍ سَاطِعٍ !

وَإِذَا بِجُنْدٍ عَظِيمٍ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ !

هُنَالِكَ ارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ .

يَا ابْنَ عِمْرَانَ ! مَاذَا أَنْكَرْتَ مِنَّا حَتَّى دَبَّرْتَ قَتْلَنَا !

وَجِئْتَ بِنَا إِلَى شَطِّ الْبَحْرِ لِيَقْتُلَنَا فِرْعَوْنُ قَتْلَ الْفِيرَانِ حَيْثُ لَا فِرَارَ وَلَا نَجَاةَ .

---

(١) يحسن بالمعلم أن يستلفت الطلبة إلى خارطة مصر .

لا نذكر إليك سوءا فلماذا هذا الإنتقام ؟ !

ألم يكفك ما أصابنا من الجهد والبلاء لأجلك حتى جئت بنا إلى هنا ؟ !

ها هو البحر أمامنا ، وها هو العدو وراءنا ، وليس لنا إلا الموت !

هنالك أظلمت الدنيا في عيون بني إسرائيل ، وزاغت الأبصار واستولى اليأس ثم خفتت الأصوات .

هنالك تزلزل كل أحد ، وحق للجبال الراسيات أن تتزلزل .

ولكن إيمان موسى بربه لم يتزلزل وسمع الناس صوتا فيه جلال النبوة .

« كلا إن معي ربي سيهدين » .

وأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضرب فانفلق البحر وقام الماء على كل جانب كالجبل .

وإذَا اثنَا عَشرَ طَرِيقًا لِاثـنَى عَشر سِبْطًا لِـكلِّ سِبْطٍ طَرِيقٌ .

وَسَارَ الْقَوْمُ آمِنِينَ وَوَصَلُوا إلَى بَرِّ الأَمْنِ وَالسَّلَامِ .

٣٤ — غرق فرعون

وَرَأى فِرْعَوْنُ كَيْفَ سَارَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَـبَرُوا الْبَحْرَ آمِنِينَ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِجُنُودِهِ أُنْظُرُوا إلَى الْبَحْرِ كَيْفَ انفَلَقَ طَوْعًا لِأَمْرِى حَتَّى آخُذَ هٰؤُلاء الْفَارِّينَ .

وَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ، فَجَزِعَ بَنُو إسْرَائِيلَ مَرَّةً أُخْرَى .

ها هُوَ الْعَدُوُّ ها هُوَ الظَّالِمُ يُرِدْ أَنْ يَعْبُرَ الطَّرِيقَ إِلَيْنَا.

وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَّا شَيْء ، وَسَيَلْحَقُنَا يَأْخُذُنَا إلَى مِصْرَ مَأْسُورِينَ أَذِلَّاء أَوْ يَقْتُلُنَا فِى هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ غُرَبَاء .

وَأَرَادَ مُوسى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَرَّ فَيَعُودُ بَحْرًا كَمَا

كانَ وَلٰـكِنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : أُتْرُكِ الْبَحْرَ سَاكِنًا « إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ » .

وَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ إِلَى عُرْضِ الْبَحْرِ (وهُوَ بَرٌّ) إِنْطَبَقَ عَلَيْهِمْ .

وَلَمَّا رَأَى فِرْعَونُ الْجِدَّ زَالَتْ سَكْرَتُهُ .

« حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

وَلٰـكِنْ هَيْهَاتَ « لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن » .

و « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيٰتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » .

فَقِيلَ لَهُ « ءَآلْئٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » .

وَمَاتَ فِرْعَونُ فِي الْبَحْرِ غَرَقًا

مَاتَ الْجَبَّارُ الَّذِى قَتَلَ أُلُوفًا مِنَ الأَطْفَالِ وَالرِّجَالِ ذَبْحًا وَخَنْقًا .

مَاتَ الطَّاغِيَةُ الَّذِى قَتَلَ أُلُوفَ آلاَفٍ صَبْرًا وَشَنْقًا .

مَات مَلِكُ مِصْرَ بَعِيدًا عَنْ عَرْشِهِ بَعِيدًا عَنْ قَصْرِهِ ، بَعِيدًا عَنْ سُلْطَانِهِ لاَ طَبِيبٌ يُدَاوِيهِ ، وَلاَ صَدِيقٌ يُوَاسِيهِ ، وَلاَ عَيْنٌ تَبْكِيهِ .

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِى شَكٍّ عَنْ مَوْتِهِ يَقُولُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لاَ يَمُوتُ .

أَمَا كُنَّا نَرَاهُ يَقْضِى أَيَّامًا وَلاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ ؟!

وَقَذَفَ الْبَحْرُ جُثَّتَهُ فَأَيْقَنُوا بِمَوْتِهِ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِفِرْعَوْنَ « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً » وَكَانَتْ جُثَّةُ فِرْعَوْنَ آيَةً لِلنَّاظِرِينَ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ .

وَغَرِقَ جُنْدُ فِرْعَونَ عَنْ آخِرِهِ وَمَا نَجَا مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَخَلَّفُوا مِصْرَ وَرَاءَهُمْ وَلَمْ يَجِدُوا فِي أَرْضِهَا الْوَاسِعَةِ ذِرَاعًا لِمَدْفَنٍ .

«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » .

٣٥ — فى البرية !

وَصَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى بَرِّ الْأَمْنِ وَالسَّلَامِ وَتَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهِ كَالْأَحْرَارِ الْأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ لَا يَخَافُونَ فِرْعَوْنَ وَلَا يَخَافُونَ هَامَانَ وَلَا يَخَافُونَ شُرْطَتَهُ .

هُنَالِكَ يَعِيشُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ .

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْحَضَرِ وَكَانَتِ الشَّمْسُ تُؤْذِيهِمْ فِي الْبَرِّيَّةِ .

وَكانُوا ضُيُوفَ اللهِ ! أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمُلُوكِ كَيْفَ يُكْرِمُونَ ضُيُوفَهُمْ ؟!

وَكَيْفَ يَضْرِبُونَ لَهُمُ الْخِيَامَ تَقِيهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ ؟!

إِنَّ كَرَامَةَ اللهِ فَوْقَ كُلِّ كَرَامَةٍ !

وَأَمَرَ اللهُ الْغَمَامَ أَنْ يُظَلِّلَهُمْ ، فَكانُوا يَمْشُونَ فِي ظِلِّ الْغَمامِ ، وَكانَ الْغَمامُ يَسِيرُ مَعَهُمْ حَيْثُ سَارُوا وَيَقِفُ أَيْنَما وَقَفُوا .

وَعطِشَ بَنُو إِسْرائِيلَ وَلَا مَاءَ فِي الْبَرِّيَّةِ ، وَلَا نَهْرَ وَلَا بِئْرَ .

ذَهَبُوا إِلَى مُوسَى ، يَشْكُونَ إِلَيْهِ الْعَطَشَ كَما يَشْكُو الطِّفْلُ إِلَى أُمِّهِ وَيَسْتَغِيثُها .

وَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُه ؟!

فَقَالَ « اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » .

« فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ » .

وَجَاعَ بَنُو إِسْرَائِيل فَشَكَوا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْجُوعَ كَمَا يَشْكُو الطِّفْلُ إِلَىٰ أُمِّهِ وَيَسْتَغِيثُهَا .

وَقَالُوا إِنَّكَ أَخْرَجْتَنَا مِنْ مِصْرَ أَرْضِ الْفَوَاكِهِ وَالثَّمَرَاتِ وَأَرْضِ الْخَيْرَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ فَمَنْ لَنَا بِطَعَامٍ فِي هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ ؟

وَدَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ ! وَمَنْ لَهُ غَيْرُه ؟! فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الطَّعَامَ. أَنْزَلَ لَهُمْ عَلَى أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ مِثْلَ الْحَلْوَى ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَيْرا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْأَشْجَارِ بِسُهُولَةٍ .

ذٰلِكَ هُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَىٰ ، ضِيَافَةُ اللّٰهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْبَرِّيَّةِ .

٣٦ — كفران بنى إسرائيل

وَلٰكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَفْسَدَ ذَوْقَهُمْ وَخُلُقَهُمْ الْعُبُودِيَّةُ الطَّوِيلَةُ .

وَكَانُوا لاَ يَقِرُّونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَكَانُوا لاَ يَسْكُنُونَ إِلَىٰ شَيْءٍ وَكَانُوا فِي طِبَاعِهِمْ أَطْفَالاً .

وَكانُوا قَلِيلِي التَّشَكُّرِ كَثِيرِي التَّشَكِّي سَرِيعِي السَّآمَةِ يُحِبُّونَ مَا مُنِعُوا وَيَكْرَهُونَ مَا أُعْطُوا .

وَلَمْ يَلْبَثُوا قَلِيلاً أَنْ قَالُوا لِمُوسَى قَدْ سَئِمْنَا هٰذَا الطَّعَامَ الْوَاحِدَ ، وَقَدْ سَئِمْنَا هٰذَا اللَّحْمَ وَهٰذِهِ الْحَلْوَى .

وَقَدْ اشْتَهَيْنَا الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

« يٰمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا » .

تَعَجَّبَ مُوسَى مِنْ هٰذَا السُّؤَالِ الْغَرِيبِ وَقَالَ بِصَوْتٍ فِيهِ الْإِنْكَارُ وَفِيهِ الْإِسْتِغْجَابُ وَفِيهِ الْعِتَابُ .

« أَتَسْتَبْدِلُونَ الذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » ؟ !

أَبُقُولاً وَخُضَرَ مَكَانَ طُيُورٍ وَحَلْوَىٰ لَمْ تَمَسَّهَا يَدُ إِنسَانٍ ؟ !

أَطَعَامَ الْفَلَّاحِينَ بَدَلَ طَعَامِ الْمُلُوكِ ؟

يَا لَفَسَادِ الذَّوْقِ ! يَا لَسُوءِ الاخْتِيَارِ !

وَلٰكِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَمْ يَتَنَازَلُوا عَنْ سُؤَالِهِمْ ، وَلَمْ يَزَالُوا يَطْلُبُونَ الْخُضَرَ وَالْبُقُولَ .

فَقَالَ مُوسَى إِنَّ مَا سَأَلْتُمْ يُوجَدُ فِى كُلِّ قَرْيَةٍ وَمِصْرٍ . « اِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ » .

٣٧ — عناد بنى إسرائيل

وَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِى طِبَاعِهِمْ أَطْفَالاً ، وَأَطْفَالاً مُعَانِدِينَ .

وَكُلَّمَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ يُخَالِفُونَهُ إِلَى ضِدِّهِ وَيَسْتَهْزِءُونَ بِهِ .

كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ .

كَطِفْلٍ عَنِيدٍ يُقَالُ لَهُ قُمْ فَيَجْلِسُ وَيُقَالُ لَهُ اِجْلِسْ فَيَقُومُ ، وَيُقَالُ لَهُ اسْكُتْ فَيَتَكَلَّمُ وَيُقَالُ لَهُ تَكَلَّمْ فَيَسْكُتُ .

وَكَانَ فِيهِمْ عِنَادُ الْأَطْفَالِ فِى خُبْثِ الْأَشْرَارِ فِى هُزْءِ الْأَعْدَاءِ فِى سَفَاهَةِ الْمَجَانِينِ .

كانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْكُنُوا قَرْيَةً وَيَأْكُلُوا طَعامَهُمُ الشَّهِيَّ مِنَ الْخُضَرِ وَالْبُقُولِ .

وَلٰكِنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ « اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ »

غَضِبُوا مِنْ هٰذَا الأَمْرِ الإِلٰهِي ، وَدَخَلُوا الْقَرْيَةَ كُرْهاً وَهُزُوًا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ .

« فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » .

فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَلاءً وَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَبَاءً مَاتُوا مِنْهُ مَوْتَ الْفِيرَانِ .

وَإِذَا أُمِرُوا بِأَمْرٍ أَكْثَرُوا السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ .

شَأْنَ رَجُلٍ لاَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ فَيُكْثِرُ السُّؤَالَ وَالتَّنْقِيرَ .

حَدَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَادِثُ قَتْلٍ ، فَأَهَمَّ ذٰلِكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الْقَاتِلِ ، وَكَانَ السُّؤَالُ عَنِ الْقَاتِلِ حَدِيثَ النَّاسِ .

جَاءُوا إِلَى مُوسَى — عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ — وَقَالُوا أَعِنَّا يَا نَبِيَّ اللهِ فِي هٰذِهِ الْقَضِيَّةِ وَادْعُ اللهَ يُبَيِّنْ لَنَا الْقَاتِلَ .

٣٨ — البقرة

وَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَبْحِ بَقَرَةٍ . هُنَالِكَ حَلَّتْ الْمُصِيبَةُ ، وَبَدَأَ بَنُو إِسرَائِيلَ يَسْأَلُونَ وَيَسْخَرُونَ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » .

« قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً » .

« قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

وَهُنَا أَرْسَلُوا الْأَسْئِلَةَ .

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ » ؟

« قالَ إنّهُ يَقولُ إنّها بقرَةٌ لا فارِضٌ ولا بِكرٌ عوانٌ بيْنَ ذلك فافعلُوا ما تُؤمَرُونَ » .

ولَمْ يَقِفُوا عَلَى هذَا السُّؤالِ ، بَلْ بَدأُوا يَسْأَلُونَ عَنْ لَوْنِها .

« قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنَا ما لَوْنُهَا » .

« قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ »

ولَمْ يَجِدُوا سُؤالاً فَأَطْلَقُوا السُّؤالَ .

« قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنَا ما هِيَ إنّ الْبقرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ » .

« قالَ إنّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فِيها » .

وَوُفِّقُوا فِي هذِهِ الْمَرَّةِ لِأَنَّهُمْ قالُوا « وَإنّا إنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ » فاهْتَدَوْا .

وَلٰـكِنَّ أَسْئِلَتَهُمْ ضَيَّقَتْ عَلَيهِمُ الأَمْرَ ، فَلَوْ ذَبَحُوا أَىَّ بَقَرَةٍ لَـكَانَتْ كَافِيَةً ، وَلٰـكِنهم شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيهِمْ .

وَفَتَّشَوا عَنِ الْبَقَرَةِ الْعَوَانِ الصَّفْرَاءِ الْفَاقِعِ لَوْنها الَّتى لَا تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ الْمُسَلَّمَةِ الَّتِى لَاشِيَةَ فِيهاَ .

وَنَدَرَ وُجُودُ هذِهِ الْبَقَرَةِ الْغَرِيبَةِ فَإِمَّا بَقَرَةٌ فارِضٌ وَإِمّا بَقَرَةٌ بِكْرٌ .

وَإِمَّا عَوَانٌ وَلٰـكِنْ غَيْرُ صَفْرَاءَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاءِ وَلٰـكنْ لَوْنُهَا غَيْرُ فاقِعٍ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صفْرَاء فاقِعٌ لَوْنُهَا وَلٰـكِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ .

وَإِمَّا بَقَرَةٌ عَوَانٌ صَفْرَاء فاقِعٌ لَوْنها لَا تُثِيرُ الأَرْضَ وَلٰـكِنها تَسْقِى الْحَرْثَ .

وَفَتَّشُوا وَفَتَّشُوا وَعَلِمُوا عَاقِبَةَ هذَا التَّنْقِيرِ ، ما هِيَ ؟ ما لَوْنُهَا ؟ ما هِيَ ! وَتَعِبُوا .

وَأَرَادَ اللهُ بِيَتِيمٍ خَيْراً فَوَجَدُوا هذِهِ الْبَقَرَةَ الَّتِي وَصَفَهَا اللهُ عِنْدَهُ فاشْتَرَوْها بِثَمَنٍ غَالٍ جِدًّا « فَذَبَحُوها وَما كَادُوا يَفْعَلُونَ » .

وَأَمَرَ اللهُ أَنْ يُضْرَبَ الْمَقْتُولُ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَقَرَةِ فَيَحْيا وَيُخْبِرَ بِاسْمِ الْقَاتِلِ .

وَهٰكَذَا كانَ ......

٣٩ — الشريعة

وَخَرَجَ بَنُو إِسرَائِيلَ مِنْ عَيْشِ الْبهائِمِ إلى عَيْشِ النَّاسِ .

وَصَارُوا يَعِيشُونَ فى البَرِّيَّةِ كالْأَحْرَارِ الْأَشْرَافِ .

هُنَالِكَ احْتَاجُوا إِلَى شَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَتُنِيرُ لَهُمُ السَّبِيلَ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيشَ كَإِنْسَانٍ إِلَّا بِشَرِيعَةٍ إِلٰهِيَّةٍ ، وَإِلَّا بِنُورٍ مِنْ رَبِّهِ .

الْعَالَمُ كُلُّهُ ظَلَامٌ فى ظَلَامٍ إِلّا مَنْ أَشرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

وَذٰلِكَ النُّورُ هُوَ نُورُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِى يَهْتَدِى بِهِ النَّاسُ .

وَمَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهٰذَا النُّورِ كانَ فى ضَلَالٍ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ .

فالْعقَائِدُ — بِغَيْرِ هذَا النُّورِ — أَوْهامٌ وَخُرَافات يَضْحَكُ مِنها الْأَطْفالُ .

أَمَا سَمِعْتُمْ عَقائِدَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكُفَّارِ وَالْيهُودِ وَالنَّصَارى وخُرَافاتِهِمْ وَأَسَاطِيرَهُمْ ؟!

وَالْعِلْمُ جَهْلٌ وَظَنٌّ وَتَخْمِينٌ وَشَكٌّ « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا » .

وَالْأَخْـــلَاقُ تَفْرِيطٌ وَإِفْرَاطٌ وَتَقْصِيرٌ وَإِسرَافٌ ، أَمَا رَأَيتمُ الّذِينَ لَا يَتّبِعُونَ الْأَنْبِياءَ كَيْفَ يَهْضِمُون الْحُقُوقَ وَكَيْفَ يُجَاوِزُونَ الْحُدُودَ وَكَيْفَ يَتّبِعُونَ الْهوَى ؟!

وَالْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةُ ظُلْمٌ وَاسْتِبْدَادٌ وَخَبْطٌ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ وَدِمَائِهِمْ .

أَمَا رَأَيْتُمْ أُولِى الْأَمْرِ — مِمَّنْ لَا يَخَافُونَ اللهَ وَلَا يَتَّبِعُونَ الشَّرِيعَةَ — كَيْفَ يَخُونُونَ الْأَمَانَاتِ وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِأَمْوَالِ اللهِ ، وَكَيْفَ يَعْبَثُونَ بِدِمَاءِ النَّاسِ وَحُقُوقِهِمْ ؟!

وَكَيْفَ اسْتَعْبَدُوا النَّاسَ وَجَعَلُوهُمْ شِيَعًا يُذَبِّحُونَ رِجَالَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ ، أَتَعْلَمُ كَمْ قُتِلَ فِى الْحَرْبِ الْأُولَى وَكَمْ قُتِلَ فِى الْحَرْبِ الثَّانِيَةِ[1] ؟!

فَالعَالَمُ كُلُّهُ ظَلَامٌ فِى ظَلَامٍ فِى ظَلَامٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ لَهُ نُورٌ مِنْ رَبِّهِ .

---

(١) للعلم : عدد المصابين فى الحرب الأولى الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) على ما حققه الانكليزى السياسى الخبير أى ـ اليس تاونسند أكثر من سبعة وثلاثين مليوناً ٣٧٥١٣٨٨٦ رجلا ، المقتولون منهم ٨٥٤٣٥١٥ نسمة ، وقدر النائب البريطانى المستر ميكستن أن عدد المصابين فى الحرب الثانية الكبرى لا يقل عن خمسين مليونا .

« ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »

وَالنَّبِي يُعَلِّمُ النَّاسَ كَيْفَ يَعْبُدُونَ اللهَ ، وَكَذٰلِكَ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يُعَامِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً .

وَالنَّبِي يُعَلِّمُ النَّاسَ آدَابَ الْحَيَاةِ مَعَ آدَابِ الدِّينِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ آدَابَ الأَكْلِ وَأَدَبَ الشُّرْبِ وَأَدَبَ النَّوْمِ وَأَدَبَ الْمَجْلِسِ وَأَدَبَ كُلِّ شَيْءٍ .

وَيُعَلِّمُهُمْ الآدَابَ كَمَا يُعَلِّمُ الْوَالِدُ الشَّفِيقُ أَبْنَاءَهُ الأَعِزَّةَ .

وَالنَّاسُ كَالأَطْفَالِ الصِّغَارِ يَحْتَاجُونَ فِي كِبَرِهِمْ إِلَى تَرْبِيَةِ الأَنْبِيَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ فِي صِغَرِهِمْ إِلَى تَرْبِيَةِ الآبَاءِ .

وَالَّذِينَ لَمْ يَتَلَقَّوْا هٰذِهِ التَّرْبِيَةَ النَّبَوِيَّةَ وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الآدَابَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ كَأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ ، نَبَتَتْ وَنَشَأَتْ بِنَفْسِهَا فَتَرَى فِيهَا عِوَجاً وَشَوْكاً وَفَسَاداً .

٤٠ — التوراة

وَأَرَادَ اللهُ أَنْ لَا يَضِيعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَمَا ضَاعَتْ أُمَمٌ بِغَيْرِ كِتَابٍ وَهُدًى مِنَ اللهِ .

وَأَرَادَ أَنْ لَا يَخْبِطُوا خَبْطَ عَشْوَاءَ كَمَا خَبِطَتْ أُمَمٌ خَبْطَ عَشْوَاءَ .

أَمَرَ اللهُ مُوسَى أَنْ يَتَطَهَّرَ وَأَنْ يَصُومَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَأْتِيَ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ حَتَّى يُكَلِّمَهُ رَبُّهُ وَيَتَلَقَّى كِتَابًا يَكُونُ لَهُمُ الْإِمَامَ .

اخْتَارَ مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ سَبْعِينَ رَجُلًا يَكُونُونَ عَلَى ذَٰلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمٌ جُحُدٌ

« وَقَالَ لِأَخِيهِ هَرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ » لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ إِمَامٍ

سَارَ مُوسَى لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ، وَلَٰكِنَّهُ حَثَّهُ الشَّوْقُ إِلَى رَبِّهِ فَتَعَجَّلَ وَسَبَقَ إِلَى الطُّورِ .

قَالَ اللهُ : « مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى ؟ »

« قَالَ هُمْ أُوْلَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى »

وَأَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُتِمَّ مِيقَاتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

وَصَلَ مُوسى إِلَى طُورِ سَيْنَاء فَكَلَّمَهُ رَبُّهُ وَنَاجَاهُ وَقَرَّبَهُ وَأَدْنَاه ، فَزَادَهُ ذٰلِكَ شَوْقاً فَقَالَ : « رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ » .

وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّ مُوسى لَا يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ لِأَنَّ اللهَ « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

وَإِنَّ الْجِبَالَ لَا تَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ ، بَلْ إِنَّ الْجِبَالَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْمِلَ كَلَامَهُ فَضْلاً عَنْ نُورِهِ .

« لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

« فَقَالَ لَنْ تَرَانِى وَلٰكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى » .

« فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا » .

« فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » .

« قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

أَخَذَ مُوسَى الْأَلْوَاحَ وَفِيهَا كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ .

وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَهَا بِقُوَّةٍ وَيَأْمُرَ قَوْمَهُ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .

وَلَمَّا وَصَلَ مُوسَى إِلَى السَّبْعِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالُوا فِي وَقَاحَةٍ وَجَسَارَةٍ .

« لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً » غَضِبَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْوَقَاحَةِ وَالْجَرَاءَةِ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ

وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَتَحَمَّلُونَ هَذِهِ الصَّاعِقَةَ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ فَكَيْفَ يَتَحَمَّلُونَ نُورَ اللَّهِ !

وَدَعَا مُوسى رَبَّهُ وَقَالَ : « رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ من قبلُ وَإِيَّاىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فعلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟! »

وَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَبَعَثَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

٤١ — العجل

وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعِيشُونَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مِصْرَ مُنْذُ قُرُونٍ .

وَكَانَ الْأَقْبَاطُ يَعْبُدُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي مِصْرَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَرَوْنَ ذَلِكَ بِعُيُونِهِمْ

وَزَالَتْ مِنْهُمْ كَرَاهَةُ الشِّرْكِ وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمْ حُبُّهُ كَمَا يَتَسَرَّبُ الْمَاءُ إِلَى بَيْتٍ وَاهِنٍ عَتِيقٍ .

وَكَانُوا كُلَّمَا وَجَدُوا فُرْصَةً انْحَدَرُوا إِلَى الشِّرْكِ كَمَا يَنْحَدِرُ الْمَاءُ إِلَى الْحُدُورِ

وَزَاغَتْ قُلُوبُهُمْ وَفَسَدَ ذَوْقُهُمْ فَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ

لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .

جَازُوا الْبَحْرَ « فَأَتَوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » .

وَغَضِبَ مُوسَىٰ وَقَالَ « إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » .

يَا لَلْعَجَبِ ! يَا لَلظُّلْمِ ! إِنَّ اللهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ وَفَضَّلَكُمْ وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ

« أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَـٰلَمِينَ » .

سَارَ مُوسَىٰ إِلَى الطُّورِ وَغَابَ عَنْهُمْ أَيَّامًا فَكَانُوا صَيْدَ الشَّيْطَانِ وَفَرِيسَةَ الشِّرْكِ .

قَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ السَّامِرِيُّ « فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ »

وَفُتِنَ بَنُو إِسرائِيلَ بِهَـٰذَا الْعِجْلِ وَخَرُّوا عَلَيْهِ صُمًّا وَعُمْيَانًا .

« أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا »

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا » .

وَنَهَاهُمْ هَارُونُ عَنْ ذَلِكَ واجْتَهَدَ وَقَالَ : « يا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي » .

وَلٰكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا مَفْتُونِينَ بِسِحْرِ السَّامِرِيِّ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ فَقَالُوا :

« لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » .

٤٢ — العقاب

وَلَمَّا أَخْبَرَ اللهُ مُوسَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا .

وَغَضِبَ عَلَى قَوْمِهِ وَغَضِبَ لِلهِ عَلَى أَخِيهِ هَارُونَ .

« قَالَ يَا هٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » .

وَاعْتَذَرَ هَارُونُ وَقَالَ « إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي » « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي »

« قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسَى إِلَى السَّامِرِيِّ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ؟

وَاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ بِجُرْمِهِ وَقَالَ : « كَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » .

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ».

وَعَاقَبَهُ مُوسَى بِالانْفِرَادِ ، يَمْشِي وَحْدَهُ وَيَعِيشُ وَحْدَهُ كَالْوَحْشِيِّ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ .

وَأَيُّ عِقَابٍ أَكْبَرُ مِنْ هٰذَا ؟ !

إِنَّ الَّذِي نَجَّسَ أُلُوفًا مِنَ النَّاسِ بِالشِّرْكِ يَجِبُ أَنْ يَتَقَذَّرَهُ النَّاسُ وَيَنْبُذُونَهُ .

إِنَّ الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ اللهِ وَعِبَادِهِ يَجِبُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ

إنَّ الَّذِى دَعَا إِلَى الشِّرْكِ فِى أرضِ اللهِ مُذْنِبٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الأَرْضُ كُلُّهَا سِجْنًا لَهُ

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلَى الْعِجْلِ الْمَلْعُونِ فأَمَرَ بِإِحْرَاقِهِ فَأُحْرِقَ ثُمَّ نَفَضَهُ فِى الْبَحْرِ

وَرَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مَصِيرَ الْعِجْلِ الْمَعْبُودِ وَرَأَوْا ضَعْفَهُ وَعَجْزَهُ

ثُمَّ الْتَفَتَ مُوسى إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ وَقَالَ :

« يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ »

وَكَذٰلِكَ فَعَلُوا ، وَقَتَلَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ الَّذِين عَبَدُوهُ وَهكَذَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى :

« إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَكَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ » .

وَكَذٰلِكَ عُبَّادُ الْعِجْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَكَذٰلِكَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ !

٤٣ — جبن بنى إسرائيل

نَشَأَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ فِى مِصْرَ وَعَلَى الذلِّ وَالْهَوَانِ وَشَبَّ عَلَيْهِ الْأَطْفَالُ وَشَابَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ ، وَبَرَدَ فِى عُرُوقِهِمُ الدَّمُ .

وَأَصْبَحُوا لا يَحْلُمُونَ بِسِيَادَةٍ وَلا يَتَحَدَّثُونَ بِغَزْوٍ وَلا جِهَادٍ

كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَقْضُونَ أَيَّامَهُمْ فِى الْغُرْبَةِ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ وَلا حُكْمٌ .

فَأَرَادَ موسى بِوَحْيِ اللهِ أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ أَرْضَ آبَائِهِمْ وَيَسْكُنُوا فِيهَا مُلُوكاً أَحْرَاراً

وَلٰكِنَّ موسى كَانَ يَعْرِفُ طَبِيعَةَ الْجُبْنِ وَالضَّعْفِ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ .

فَأَرَادَ أَنْ يُشَوِّقَهُمْ وأَنْ يُهَوِّنَ عَلَيهِمُ الأَمْرَ .

لِأَنَّ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيهَا الْحِيثِيُّونَ والْكَنْعانِيُّونَ وهُمْ قَوْمٌ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ .

ولَا يَدْخُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ حَتَّى يُخْرِجُوا مِنها هؤُلاءِ الْجَبَّارِينَ .

فَذَكَّرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيهِمْ وَما فَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، حَتَّى يَنْشَطُوا لِلْجِهادِ فِى سَبِيلِ اللهِ وحَتَّى يَكْرَهُوا هٰذِهِ الْحَياةَ الذَّلِيلَةَ غَيْرَ اللَّائِقَةِ بِأَبْنَاءِ الأَنْبِياءِ وأَولَادِ الْمُلُوكِ .

« وإِذْ قالَ موسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ »

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَكُمُ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ فَلَيْسَ لَكُمْ إِلّا أَنْ تَقُومُوا وَتَنْتَزِعُوهَا مِنْ أَعدائِكُمْ .

وَإِنَّ اللهَ إِذَا كَتَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا وَقَدَّرَهُ لَهُ فَقَدْ هانَ عَلَيْهِ أَنْ يأْخُذَهُ فَلا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ .

« يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » .

وَخافَ أَنْ تَغلبهُمْ طَبيعَةُ الجُبْنِ فقال :

« وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ » .

وَوَقعَ مَا كانَ يَحْذَرُهُ مُوسَى ، فَكانَ جَوابُهُمْ عَلَى كُلِّ مَا قالَ مُوسَى .

« يا مُوسَى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا منها » .

وَقالُوا فى وَقارٍ وَسُكُونٍ :

« فإِنْ يَخْرُجُوا مِنها فَإِنَّا داخِلُونَ » .

« قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِما ادْخُلُوا عليهِم البَابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ * وَعَلَى اللهِ فتوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِمْ وَقالُوا :

إذَا كانَ لاَ بُدَّ مِنَ الدُّخُولِ فَادْخُلْ أَنْتَ بِمُعْجِزَةٍ ، فَإِذَا سَمِعْنَا أَنَّكَ قَدْ دَخَلْتَهَا ، جِئْنَا فَدَخَلْنَا نَحْنُ أَيْضاً آمِنِينَ سَالِمِينَ .

« قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » .

هُنَالِكَ غَضِبَ مُوسى وَيَئِسَ مِنْ هَؤُلاَءِ .

« قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

« قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

وَفِى هٰذِهِ الْمُدَّةِ يَمُوتُ هٰذَا الْجِيلُ الَّذِى نَشَأَ فِى مِصْرَ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ وَالذُّلِّ .

وَيَنْشَأُ جِيلٌ آخَرُ يَنْشَأُ فِى هٰذَا التِّيهِ عَلَى الشِّدَّةِ وَالْعُسْرِ وَتِلْكَ أُمَّةُ الْمُسْتَقْبَلِ .

٤٤ — فى سبيل العلم

عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : قامَ مُوسَى خَطِيباً فى بنِى إِسْرَائِيلَ فسُئِلَ :

أىُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟

فقَالَ : أنا أَعْلَمُ !

فعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَى اللهِ !

فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِى بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ .

قالَ رَبِّ كَيْفَ بِهِ ؟

فَقِيلَ لَهُ اِحْمِلْ حُوتاً فى مِكْتَلٍ (زَنْبِيلٍ) فَإِذَا فَقَدْتَهُ ، فَهُوَ ثَمَّ .

فانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ وَحَمَلاَ حُوتاً فى مِكْتَلٍ حَتَّى كانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءوسَهُمَا فناما .

فانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فاتَّخذ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ سَرَبًا (مَسْلَكاً) وَكانَ لمُوسىٰ وَفَتَاهُ عَجبًا .

فانْطَلقا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِما وَيَوْمِهِما فَلمَّا أَصْبَحَ قالَ مُوسىٰ لِفَتَاهُ آتِنا غَدَاءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هٰذَا نَصَباً (تَعَباً) .

وَلَمْ يَجِدْ مُوسىٰ مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جاوَزَ الْمكانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ .

فَقَالَ لَهُ فتاهُ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ .

قالَ مُوسىٰ ذٰلِكَ ما كُنّا نَبْغى !

فارْتَدَّا عَلَى آثارِهِما قَصَصًا .

فَلمَّا انتَهيا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى (مُغَطًّى) بِثَوْبٍ فَسَلَّمَ مُوسىٰ .

فَقَالَ الْخَضِرُ : وَأَنّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ ؟

فقَالَ : أنا مُوسٰى !

فقالَ : مُوسى بَنِي إسْرَائِيلَ ؟

قالَ : نعَمْ !

قالَ مُوسى : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ؟

قالَ : إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً !

يامُوسى إنّى عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ ، وأَنْت عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ !

قالَ مُوسى ستَجِدُنِي إنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِى لكَ أَمْراً

فانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا .

فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ (أُجْرَةٍ) .

فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ مِنَ الْبَحْرِ .

فَقَالَ الْخَضِرُ :

يَامُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هٰذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ .

فَقَالَ مُوسَى :

قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟

قَالَ الْخَضِرُ :

أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟ !

قَالَ مُوسَى :

لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً .

فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَاناً

فانْطَلَقا فإذَا بِغُلامٍ يلعَبُ مع الغِلْمَانِ فأخَذَ الخَضِرُ برَأْسِهِ مِنْ أعْلاهُ فاقتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ .

فقَالَ مُوسى :

أقتَلتَ نفْساً زَكِيَّةً بِغيْرِ نفْسٍ ؟

قالَ : ألمْ أقُلْ لك إنّكَ لنْ تَستَطِيعَ مَعِي صَبْراً ؟!

فانْطَلَقَا حتّى إذَا أتَيَا أَهْلَ قرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أهْلَهَا فأَبَوا أنْ يُضيِّفُوهُمَا فوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ .

قامَ الخَضِرُ بِيَدِهِ فأقامهُ .

فقَالَ مُوسى :

لوْ شِئْتَ لاتّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً !

فقَالَ : هٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ !

قالَ النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسى لوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أمْرِهِمَا[1] ! » .

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري .

٤٥ — التأويل

ثُمَّ نَبَّأَ الْخَضِرُ مُوسى .

فَقَالَ : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ (صَالِحَةٍ) غَصْباً .

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً .

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً .

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ .

وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً .

هُنَالِكَ عَرَفَ مُوسى أَنَّ أَحَداً لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحِيطَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنَّ بَعْضَ عِلْمِهِ عِنْدَ بَعْضٍ وَبَعْضَهُ عِنْدَ بَعْضٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

٤٦ — بنو إسرائيل بعد موسى

وَتُوُفِّيَ مُوسى وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ عِقَاباً مِنَ اللهِ وَجَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ .

وَضَرَبَ اللهُ عَلَيهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ .

إِنَّهُمْ قَدْ أَسْخَطُوا اللهَ الَّذِي جَعَلَ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكاً ، وَآتَاهُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ فِي عَصْرِهِمْ .

الَّذِي أَنْجَاهُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ .

الَّذِى فَرَقَ بِهِمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَاهُمْ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْن وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

الَّذِى ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَـــامَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى

الَّذِى فَجَّرَ لَهُمْ مِنَ الأَرْضِ عُيُونًا ، وَوَسَّعَ لَهُمْ فى مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ .

وَكَانَ جَزَاءُ كلّ ذٰلِكَ أَنْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَعَصَوْا وَاعْتَدَوا .

وَأَغْضَبُوا نَبِيَّهُمْ مُوسى أَشْفَقَ خَلْقِ اللهِ عَلَيهِمْ وَأَشْفَق عَلَيهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ .

ذٰلِكَ الَّذِى كانَ يَحْنُو عَلَيهِمْ حُنُوَّ الْمُرْضِعِ عَلَى الْفَطِيمِ وَالأُمِّ الْحَنُونِ عَلَى الْيَتِيمِ .

ذٰلِكَ الَّذِى كُلَّمَا سَبُّوهُ دَعَا لَهُمْ وَكُلَّمَا ضَحِكُوا عَلَيْهِ بَكَى لَهُمْ وَكُلَّمَا جَفَوْهُ رَثَى لَهُمْ .

ذلكَ الّذِى خلّصهُمْ من أمْرِ فِرْعَوْنَ وَأخْرَجَهُمْ مِنْ سجْنِ مِصْرَ إلَى برِّ الْحُرِّيَّةِ وَالشّرَفِ ، وَمِنْ حَيَاةِ الْعَبِيدِ الأشْقِيَاءِ ، إلَى حَيَاةِ الأحْرَارِ الشُّرَفَاءِ .

قَدْ أغْضَبُوهُ وَآذوْهُ وَعَانَدُوهُ وَسَخِرُوا منْهُ وَجَعَلُوهُ أهْوَنَ رَجُلٍ فِيهِمْ وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً .

ألا يَسْتَحِقُّونَ هٰذَا العِقَابَ وَالخِزْىَ وَالذُّلَّ وَالمَسْكَنَةَ وَالتِّيهَ الدَّائِمَ وَألّا يُفْلِحُوا أبَداً ؟

بَلى ! إنّهُمْ يَسْتَحِقونَ كُلَّ ذٰلكَ وَأكثرَ بِأعْمَالِهِمْ :
« وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

فهرست الجزء الثالث

من قصص النبيين للأطفال

	صفحة
تصدير للأستاذ الشرباصى	٣
مقدمة للأستاذ سيد قطب	١٠
من كنعان إلى مصر	١٢
بعد يوسف	١٤
بنو إسرائيل فى مصر	١٦
فرعون مصر	١٨
ذبح الأطفال	٢٠
ولادة موسى	٢٢
فى النيل	٢٣
فى قصر فرعون	٢٤
من يرضع الطفل	٢٧
فى حجر أمه	٢٨
إلى قصر فرعون	٣١
الضربة القاضية	٣٢
يظهر السر	٣٤
من مصر إلى مدين	٣٧
فى مدين	٣٩

	صفحة
الطلب	٤٠
الزواج	٤٢
إلى مصر	٤٥
إذهب إلى فرعون إنه طغى	٤٨
أمام فرعون	٥٠
الدعوة إلى الله	٥٢
معجزات موسى	٥٤
إلى الميدان	٥٦
بين الحق والباطل	٥٨
وعيد فرعون	٦٢
سفاهة فرعون	٦٤
مؤمن آل فرعون	٦٧
نصيحة الرجل	٧٠
زوج فرعون	٧٣
محنة بني إسرائيل	٧٧
المجاعات	٧٩
خمس آيات	٨٢
الخروج	٨٥
غرق فرعون	٨٩
في البرية	٩٢
كفران بني إسرائيل	٩٤

صفحة

عناد بنى إسرائيل ٩٦
البقرة ٩٨
الشريعة ١٠١
التوراة ١٠٥
العجل ١٠٨
العقاب ١١٠
جبن بنى إسرائيل ١١٣
فى سبيل العلم ١١٧
التأويل ١٢٢
بنو إسرائيل بعد موسى ١٢٣